ظاهـرة نبش القبـور في الغـرب الإسـلامى

بين الصـراع السياسي والخـلاف المذهبـي

(٣٤٥-٧٧٦هـ/٩٥٦-١٣٧٤م)

د. فريـد عبد الرشيد فريد سليم

مدرس التاريخ الإسلامي

كليــة الآداب – جامعة الزقـازيـق

مُلخـص:

تسعي هذه الدراسة إلي تسليط الضوء علي ظاهرة من أكثر الظواهر غموضاً وإبهاماً فـي تـاريخ الغـرب الإسـلامي بعدوتيـه، وهـي ظـاهرة نـبش القبـور والتسـلط عليهـا بـالإحراق والتخريب، وقد تنوعت دوافع وأسباب تلك الظاهرة باختلاف طبيعة الظروف المؤدية لارتكابها وشخصية مرتكبيها وضحاياهم، وتأتي الصراعات السياسية والمذهبية التى سيطرت علي تاريخ الغرب الإسلامي خلال تلك الفترة علي رأس الدوافع والأسباب المؤدية لارتكاب هذا الفعل الشنيع، وارتبطت تلك الصراعات في الغالب الأعم بالرغبة في الانتقام من الخصوم والثوار والمناوئين الذين خاضوا في هذه الصراعات بانتهاك وأستباحة حرمة قبورهم بعد رحيلهم إمعاناً في التشفي والانتقام منهم، رغم أن الإسلام في تشريعاته لم يدعُ إلي تخريب القبور أو حتى المساس بها كما نهى عن التمثيل والعبث بالجثث.

وقد توصلت الدراسة إلي أن هذا الفعل الشنيع لم يصل إلي حد الظاهرة الإجرامية؛ لأسباب عدة منها إحاطة هذا النوع من الجرائم بسياج من السرية والكتمان، فضلا عن إحجام المؤرخين عن التأريخ له، كما أن الواقع التاريخى العياني يؤكد أن تلك الانحرافات لم تكن طابعًا غالبًا، وإنما مست أفراداً، ولم يكن بإمكانها أن تشكل تياراً بارزاً في مجتمع الغرب الإسلامي.

Abstract :

This study seeks to shed light on a phenomenon that has been considered one of the most mysterious and ambiguous phenomena in the history of the Islamic West, this is the phenomenon of digging up graves, as well as the domination of graves by burning and vandalism, as the motives and reasons behind this phenomenon varied due to the nature of the circumstances leading to its perpetration, the personality of its perpetrators and their victims, the political and sectarian conflicts that dominated the history of the Islamic West during that period were at the top of the motives and reasons led to the perpetration of such a heinous act, in most cases, such conflicts were associated with the permissibility and violation of the sanctity of their graves after their passing away, as a way to further Underestimating and take revenge on them despite the fact that Islam, in its legislation, has not called for the destruction of graves, or even harming them, it also forbade mutilation and tampering with corpses, and the study concluded that this heinous act hasn't reached the level of a criminal phenomenon; that has been for many reasons, including surrounding such type of crimes with a fence of secrecy and concealment, as well as the reluctance of historians to chronicle such a matter, and the historical reality confirms that these deviations did not constitute a dominant nature, but rather affected individuals, and such deviations could not form a prominent current in Islamic West society.

مقدمـــة:

كان من الطبيعى أن يظل التأريخ لظاهرة نبش القبور في المجتمع الإسلامي محفوفاً بالمحاذير والمخاوف، ومن ثم أحجم المؤرخون عن التأريخ لتلك الظاهرة، باعتبارها موضوعاً محرماً وغامضاً، خصوصاً مع تحريم الإسلام لهذا الفعل القبيح، والاختلاف البيّن بين الرؤية الإسلامية النظرية وبين الواقع التاريخي العيانى. ويُعزي الأمر دون شك إلي أن الكيانات السياسية التى عرفها الغرب الإسلامي عبر تاريخه الطويل قد اعتبرت أعداءها ومن ينحو منحاهم، ليسوا أعداء ومناوئين سياسيين فحسب، بل كفاراً – وهم إخوان لهم في الدين – يجب جهادهم وإزهاق أرواحهم، بل والتسلط علي قبورهم بالنبش والتخريب إمعاناً في التشفي والانتقام منهم، وقد يصل الأمر في بعض الأحيان إلي حد اغتصاب هؤلاء الموتي في قبورهم دون مراعاة لحرمة الأموات، باعتبار ذلك مصيراً محتوماً لكل من ناوأ حكمهم أو خالف مذهبهم.

رغم أن الشريعة الإسلامية والسنة النبوية وكذا أقوال الفقهاء والأئمة – علي اختلاف مذاهبهم – قد اتفقوا علي عدم جواز نبش قبور المسلمين أو حتى المساس بها إلا بمسوغ شرعي، غير أنه لم يُلتفت في الغالب إلي هذا الحكم الفقهي في خضم الصراعات والحروب الدموية بين الأمراء والحكام المتنازعين علي السلطة، والذين لم يدخروا جهدا في تنحيتها جانباً من خلال صياغة مسوغ شرعي آخر من بنات أفكارهم، وبمباركة فقهائهم، ينطوي علي استباحة تكفير الخصوم والمناوئين، إذ كان الصراع السياسي والخلاف المذهبي كفيلين بأن يدرج كل فريق خصمه وعدوه في عداد الكافرين، الذين يجوز استحلال دمائهم وانتهاك حرمة قبورهم، من خلال تأويل النص المقدس وتوظيفه وتطويعه لخدمة هذا المنظور السياسي، الذي لعب فقهاء السلطة دوراً هاماً في الترويج له، مادام الأمر يتعلق بمصلحة القابعين علي رأس السلطة. وهذه الصورة علي وجه الخصوص جديرة بالدراسة والبحث.

أولاً: النبش في اللغة والاصطلاح:

إن محاولة التأريخ لظاهرة نبش القبور في تاريخ الغرب الإسلامي يستلزم استحضار التعريف اللغوي والاصطلاحي لمفهوم "نبش القبور"، حيث تحيلنا المعانى المختلفة علي أن لفظة "النبش" في اللغة يقصد بها نبش الشيء ينبشه نبشًا: استخرجه بعد الدفن، ونبش الموتى: استخراجهم، والنباش : الفاعل لذلك، وحرفته النباشة. والنبش: نبشك عن الميت وعن كل دفين(١).

ولا يخرج المعني الاصطلاحي عن المعني اللغوي، ففي اصطلاح الفقهاء النبّاش هو من يفتش القبور عن الموتي ليسرق أكفانهم وحليهم بعد دفنهم(٢)، وهناك فرق بين نبش القبور بغرض التشفى والانتقام من أصحابها وبين الكنزيون الذين ينهمكون في البحث عن الكنوز المدفونة في أساسات الأبنية الأثرية القديمة، ينبشون "الأرض ويتلفون العمارات والمقابر أحياناً"(٣).

ثانياً: المرجعية الفقهية لحرمة الأموات في الإسلام:

جعل الله تعالى حرمة المسلم من أعظم الحُرمات، وحرمة المسلم غير مقيدة بحياته، بل هي باقية في الحياة وبعد الممات، ويجب صونها والذبُّ عنها في كلّ حال، ولا شك أن في نبش القبور ونقل ما بقى من آثار الموتى انتهاك حرمةٍ أوجب الله تعالى حفظها وصيانتها والدفاع عنها؛ وعليه لا يجوز نبش قبور المسلمين ولا الكشف عن موتاهم بعد دفنهم وإهالة التراب عليهم بلا مسوغ شرعي، وذلك باتفاق الفقهاء؛ لما في ذلك من هتك لحرمة الميت؛ لأن

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، مادة نبش، ج٤٨، ص٤٣٢٤.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤م، مادة نبش، ص٨٩٧؛ الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط١، ٢٠٠١م، ج٤٠، ص١٨.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، ج١، ص٢٧٤. يشير الوزان إلي وجود جماعة في مدينة فاس يدعون الكنازين، كانوا يقومون بالبحث عن الكنوز في المبانى الأثرية وفي المقابر والأضرحة أيضاً، لأنهم مقتنعون بأن الرومان حينما رحلوا عن إفريقيا، دفنوا في ضواحى مدينة فاس عدداً وافراً من الأشياء الثمينة التى لم يتمكنوا من حملها معهم. نفس المصدر والصفحة.

المكان الذي يدفن فيه المسلم يعد وقفًا عليه ما دام شئُ منه موجوداً فيه حتى يفنى، فإن بقي شئُ من أعضائه فيه، فحرمته باقية كما لو بقي جميعه، وحرمة المسلم ميتا كحرمته حيًا(١).

ولما في نبش القبر من التعدى على الميت والتمثيل به والإهانة له وهتك حرمته وتكسير عظامه، وكسر عظم المؤمن ميتاً ككسره حيًا، فمن فعل ذلك فقد أتى ذنبًا عظيمًا، وارتكب جرمًا كبيراً، وعرّض نفسه للعن؛ لما ورد عن عائشة رضى الله عنها: "أن رسول الله صلي الله عليه وسلم لعن المختفى والمختفية"(٢)، أي نباشي القبور(٣).

ويعلق ابن عبد البر على هذا الحديث بقوله: "وفي لعن رسول الله صلي الله عليه وسلم النباش دليل علي تحريم فعله، والتغليظ فيه"(٤). وكانت عائشة رضى الله عنها تقول: "كسر عظم المسلم ميتاً ككسره وهو حى"(٥). وقد نهي الرسول صلي الله عليه وسلم عن المثلة، وترك الإنسان دون دفن مثلة، وكان قد أوصى عليه السلام إذ قتل بنى قريظة أن تحفر خنادق ويلقوا فيها، كما "أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث"(٦).

---

(١) ابن مفلح المقدسى: كتاب الفروع، تحقيق عبد الله بن محسن التركى، ط١، مؤسسة الرسالة _ دار المؤيد، ٢٠٠٣م، ج٣، ص ٢٨٨–٣٨٩؛ أبي زكريا بن شرف النووي: كتاب المجموع، شرح المهذب للشيرازي، تحقيق وتعليق محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، السعودية، ج٥، ص٢٧٣؛ ابن الهمام الحنفي: شرح فتح القدير، تعليق الشيخ عبد الرازق غالب المهدى، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، مج٢، ص١٤٩؛ ابن الخطاب المالكى المغربي: مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، ط١، دار الرضوان للنشر، موريتانيا، نواكشوط ، ٢٠١٠م، مج٢، ص٥٥٢.

(٢) مالك بن أنس: الموطأ، رواية يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف، ط٢، دار الغرب الإسلامى، بيروت، مج١، ١٩٩٧م، ص٣٢٥.

(٣) سمى النباش مختفى؛ لإظهاره الميت وإخراجه إياه بعد دفنه من قبره؛ لأن أخفيت تكون بمعنى سترت وبمعنى أظهرت. ابن عبد البر القرطبى: الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معانى الرأى والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تحقيق عبد المعطى أمين قلعجى، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق _ بيروت، دار الوعي، حلب _ القاهرة، ١٩٩٣م، مج٨، ص٣٤٣.

(٤) ابن عبد البر القرطبى: الاستذكار، مج٨، ص٣٤٤؛ الحسن البصري: التفريع فى فقه الإمام مالك بن أنس، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ٢٠٠٧م، ص٢٢٢.

(٥) مالك بن أنس: الموطأ، مج١، ص٣٢٥.

(٦) ابن حزم: المحلي، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة ، ١٣٤٩هـ، ج٥، ص١١٧.

واستناداً إلي حرمة نبش القبور والتعرض لها، اختلف الفقهاء في قطع يد النباش الذي ينبش قبور الموتى فيسرق أكفانهم بين قولين: الأول، لا قطع على النباش ولو كان القبر في بيت مقفل، وهذا قول أبي حنيفة. والقول الثانى: وجوب قطع يد النباش، وهذا قول المالكية[١] والشافعية[٢] والحنابلة[٣]، وهو قول ابن الزبير وعائشة رضى الله عنها[٤]، وقال به من التابعون التابعون عمرُ بن عبِد العزيز[٥].

ويدلل أصحاب القول الأول علي صحة قولهم بما رواه الزهري من أن مروان بن الحكم أتى "بقوم يختفون القبور – أي ينبشونها – فضربهم ونفاهم، وأصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم متوافرون"، فكان هذا اتفاقا ممن بقى من الصحابة في عهد مروان علي عدم قطع يد النباش. ويدلل أصحاب القول الثانى على صحة قولهم بقوله تعالى﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٦]، وهذا نص عام، فوجب أن أن يكون علي عمومه في النباش وغيره؛ لأن النباش سارق[٧].

وفي السياق ذاته، لا يعتبر الاعتداء علي جدث الميت أو رفاته جريمة واقعة علي الميت باعتباره إنسانًا، ولا يعتبر الميت هو المجنى عليه، وإنما يحرم الاعتداء على رفات الأموات باعتبارها شيئاً محترماً لدى الجماعة ولها حرمة في نفوسهم، فالمجنى عليه في الجريمة هو الجماعة، والشريعة تعاقب مرتكبها باعتباره معتدياً علي حرمة الأموات أو حرمة المقابر[٨].

---

(١) ابن عبد البر القرطبى: الاستذكار، مج٨، ص٣٤٤.

(٢) أبي الحسن الماوردي: الحاوى الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد عوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، تقديم محمد بكر إسماعيل وعبد الفتاح أبو سنة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١٣، ص٣١٣.

(٣) ابن قدامة: المغنى، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركى عبد الفتاح محمد الحلو، ط٣، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٧م، ج١٢، ص٤٥٥.

(٤) الماوردي: الحاوى الكبير، ج١٣، ص٣١٣.

(٥) البيهقى: السنن الكبري، تحقيق محمد عبد القادر، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ج٨، ص٤٦٨.

(٦) سورة المائدة، الآية رقم ٣٨.

(٧) أبي الحسن الماوردي: الحاوى الكبير، ج١٣، ص٣١٣؛ ابن قدامة: المغنى، ج١٢، ص٤٥٦.

(٨) عبد القادر عودة: التشريع الجنائي في الإسلام مقارناً بالقانون الوضعى، دار الكاتب العربي، بيروت، (د.ت)، ج١، ص٣٩٩.

وعليه، فإن التحريم هو الأصل في نبش قبور المسلمين، ولا يُعدل عن هذا الأصل إلا في حالات معينة بيّنها الفقهاء، منها جواز نبش قبر الميت الذي دفن بغير غسل أو بغير صلاة ما لم يتغير، إذا كان في نبشه مصلحة تتعلق به من زيادة البركة له، فإن خشى عليه التغير فلا؛ لما في ذلك من انتهاك لحرمته(١).

ومن هذه الحالات أن تكون الأرض التى دُفن فيها الميت مغصوبة(٢)، فإذا دفن ميت ميت في أرض مغصوبة فيستحب لصاحب الأرض ترك هذا الميت في قبره حتى يبلى ويصبح ترابًا(٣)، ويكره نبشه حينئذ(٤)، فإن لم يقبل صاحب الأرض بقاء الميت في قبره وأراد إخراجه منه فله نبش القبر وإخراج الميت منه باتفاق المذاهب الأربعة(٥) .

أضف إلي هذا، أن يكون قد سقط مع المُتَوَفى مال أثناء دفنه، فيجوز في هذه الحالة نبش قبره لاستخراج المال؛ إذ نتوفر علي إشارة تخص أحد الأشخاص كان يعمل ناظراً علي المارستان بفاس، ويتولى تجهيز الموتى بيده وقد جيء إليه "ذات يوم بميت غريب، فلما أراد غسله، وجد معه بضعة دراهم، فوضعها في الأرض ليذهب بها إلي بيت المال، فلما كفنه، اندرجت معه في الكفن؛ فنسيها، فلما وضع عليه التراب، تذكرها. فنبش عليه؛ لإخراجها فوجد الدراهم مسمرة في بدنه، من رأسه إلي قدمه، فرد عليه التراب، وقال: لعله من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله"(٦).

---

(١) محمد بن إدريس الشافعى: الأم، تحقيق وتخريج رفعت فوزى عبد المطلب، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر ٢٠٠١م، ج٢، ص٦١٢؛ ابن رشد القرطبى: المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجى، ط١، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص٢٣٣؛ أبي الحسن الماوردي: الحاوى الكبير، ج٣، ص٦٢.

(٢) الموسوعة الفقهية، ج٣٩، ص٤١٧.

(٣) ابن قدامة: المغنى، ج٣، ص٥٠١؛ أبي زكريا النووى: كتاب المجموع، ج٥، ص٢٦٨.

(٤) ابن مفلح المقدسي: كتاب الفروع، ج٣، ص٣٨٧–٣٨٨.

(٥) أبي الحسن الماوردى: الحاوى الكبير، ج٣، ص٢٧؛ ابن قدامة: المغنى، ج٣، ص٥٠١؛ ابن الهمام الحنفي: فتح فتح القدير، ج٢، ص١٤٩؛ ابن عبد الكريم الرافعى القزوينى: العزيز، شرح الوجيز المعروف بالشرح الكبير، تحقيق وتعليق علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص٤٥٥.

(٦) ابن إدريس الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني وآخرون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، (د.ت)، ج٣، ص١٩٥.

وبالمثل فإن كتب الحسبة قد استطردت في الحديث عن حرمة نقل الموتى بنبش قبورهم دون مسوغ شرعي، فنصت علي أن لوالى الحسبة أن يمنع من نقل الموتى من قبورهم إذا دفنوا في ملك أو مباح إلا في أرض مغصوبة، فيكون لمالكها حينئذ الحرية في أن يأمرَ من دفنه فيها بنقله منها(١).

أما قبور الكفار، فيجوز نبشها وتخريبها إذا كان للمسلمين مصلحة في ذلك باتفاق المذاهب الفقهية، واعتمدوا في هذا الرأي علي حديث بناء مسجد النبي عليه الصلاة والسلام؛ إذ كان بموضعه قبوراً للمشركين فأمر بنبشها وجعلها مسجداً(٢)، بل إن بعض الفقهاء يرون بأن نبش قبور الكفار المشركين لا يشترط أن يكون لغرض فيه مصلحة أو حاجة لدى المسلمين؛ لأن المشرك لا حرمة له حياً وميتاً(٣). أما أهل الذمة من اليهود والنصارى فلا "يجوز نبش قبورهم لاتخاذ مسجد ولا غيره" (٤).

ورغم أن الإسلام في تشريعاته – كما بينا – لم يدعُ إلي نبش قبور المسلمين أو المساس بها، كما نهي عن العبث بالجثث والتمثيل بها، إلا أن المسلمين قد مارسوا ذلك الفعل الشنيع المنكر في فترات متفرقة من تاريخهم؛ حيث تطالعنا دراسة النصوص المصدرية علي معطيات كثيرة تؤكد في وضوح أن المسلمين قد مارسوا نبش القبور وتدميرها في أوقات الصراع السياسي علي السلطة، وكذا في أوقات توهج الخلافات المذهبية بين طوائفهم المختلفة.

ثالثاً: ظاهرة نبش القبور في صدر الإسلام:

تعود أول إشارة إلي ظاهرة نبش القبور في تاريخ الإسلام إلي العهد النبوي، حيث ذكرت بعض المصادر أن قريش أثناء حربها مع النبي صلي الله عليه وسلم حاولت نبش قبر أمه آمنة بنت وهب، وذلك حين خرج جيش قريش لملاقاة جيش المسلمين في غزوة أحد،

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٣٧٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتب أبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار السلام، الرياض، ٢٠٠٠م، ج١، ص٦٧٩.

(٣) ابن بطال: شرح صحيح البخاري، تعليق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط٢، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٨١.

(٤) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

وكانت قريش قد نزلت حينئذ بمنطقة تعرف باسم "الأبواء"(١)، فطلبت هند بنت عتبة(٢) من زوجها أبي سفيان بن حرب ومن معه نبش قبر أم النبي "فاستشار أبو سفيان أهل الرأي من قريش في ذلك فقالوا: لا تذكر من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخُزاعة موتانا"(٣).

وفي عهد الخلافة الراشدة، وتحديداً في أحداث الصراع السياسي بين المسلمين علي الخلافة، أو ما يعرف بالفتنة الكبري التى حدثت وقائعها في عهد عثمان بن عفان _ رضي الله عنه_ وانتهت بمقتله، لم يكتف الثأثرون عليه بقتله وطرح جثته علي الأرض لثلاثة أيام دون دفن، أو حتى التمثيل بجثته ورمي نعشه بالأحجار زيادة في التنكيل به، بل إنهم زادوا الأمر سوءاً فلم يسمحوا له أن يدفن في جنازة تليق به وبمقامة الجليل، فلم يسمحوا بجنازته ولا بدفنه مع بقية الصحابة والخلفاء، فدفنت جثته ليلاً بمقبرة (حشّ كوكب)، وهي مقبرة مجاورة لمقابر اليهود خوفاً من ترصد الثائرين لجنازته(٤).

وعلي هذا النحو، ظل مكان دفن عثمان – رضى الله عنه – مجهولاً بين النخيل إلا من بعض الصحابة خشية أن يُنبش قبره ويعبث به، ففي أثناء دفنه حاولت إحدى بناته الصراخ والبكاء عليه، فنهرها الصحابة؛ وقالوا لها: "إنا نخاف عليه من هؤلاء الغوغاء أن ينبشوه"(٥).

---

(١) الأبواء: قرية من أعمال الفرع من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، وبمدينة الأبواء يوجد قبر آمنة بنت وهب أم النبي صلي الله عليه وسلم. الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج١، ص٧٩.

(٢) كانت هند بنت عتبة أول من مثّل بأصحاب النبي صلي الله عليه وسلم، وأمرت نساء قريش بارتكاب هذا الفعل الشنيع، مثل جذع الأنوف والأذان. الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونسن، طبعة عالم الكتب، (د.ت)، ج١، ص٢٧٤.

(٣) الواقدي: كتاب المغازي، ج١، ص٢٠٦.

(٤) دفن سراً في مكان يدعي "حش كوكب"، وهو مكان كان اليهود يدفنون فيه موتاهم. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، ط١، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٠م، ج١، ص٦٥؛ الطبري: تاريخ الطبري المسمى تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ج٤، ص٤١٢؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفي عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج٥، ص٥٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، مج٣، ص٦٩–٧٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩١م، ج٧، ص١٩٠– ١٩١؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ط١، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م، ص١٣٠.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري المسمى تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص٤١٣.

وعرف العصر الأموي هو الآخر ظاهرة نبش القبور وتخريبها، ومن الأمثلة علي ذلك ما فعله معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بنى أمية عندما أمر واليه علي المدينة بنبش قبور الصحابة من شهداء معركة أحد، وكان عذره في ذلك هو حاجته إلي إنشاء عين ماء بتلك الناحية، فأمر معاوية عامله علي المدينة بنبشها، فأخرجوهم رطاباً يتثنون، يحملون علي أعناق الرجال كأنهم قوم نيام، فإذا أصابت المسحاة[١] أصبع رجل منهم انفطرت دماً[٢]. ولعل من سخرية الأقدار أن قبر معاوية بن أبي سفيان هو أول قبر سيتعرض للنبش والتخريب بمجرد صعود الدولة العباسية واستيلائها علي حاضرة الأمويين دمشق. ونتوفر علي إشارة أخرى تعود إلي عهد الأمويين، نستشف منها مدي الانشقاق الذي كانت تعانى منه الدولة الأموية في أواخر عمرها، والذي أضر بها ضرراً بليغاً، هذه الإشارة تتعلق بمروان بن محمد[٣] آخر خلفاء الدولة الأموية، الذي قيل عنه: "إنه نبش علي يزيد بن الوليد وأخرجه من قبره وصلبه"[٤].

وشهد العصر العباسي ظاهرة نبش القبور وتخريبها علي نطاق واسع، فصار من الصعب أن تسكت عنها المصادر، فقد بالغ العباسيون في التنكيل بخصومهم الأمويين بعدما اسقطوا دولتهم وعولوا علي استئصال شأفتهم[٥]، ولم تقف روح الانتقام الذي أضمره العباسيون

(١) المسحاة: مجرفة من الحديد. ابن منظور: لسان العرب، مادة مسح، ج٤٦، ص٤١٩٩.

(٢) ابن المبارك: كتاب الجهاد، تحقيق وتعليق نزيه حماد، دار المطبوعات الحديثة، جدة، (د.ت)، ج١، ص١١٢؛ للمزيد انظر الواقدي: كتاب المغازى، ج١، ص٢٦٧– ٢٦٨؛ ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م، ج٣، ص١٠؛ ابن الجوزى: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٣، ص١٨٣.

(٣) بويع بالخلافة في دمشق سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م بعد خلعه إبراهيم بن يزيد، ولم يكتف مروان بخلعه بل قتله وصلبه، وكانت نهاية مروان بن محمد مأساوية عندما قتل سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م علي أيدي جنود العباسيين بمصر، وزالت بنهايته دولة بنى أمية. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ٢٠٠٥م، ج٣، ص١٩٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٦١، ٦٣؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٠٣.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج١، ص٥٩.

(٥) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها، دراسة وتحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦م، ج٣١، ص٦٣.

العباسيون لبنى أمية عند حد نهاية دولتهم أو حتى قتل الأحياء منهم وصلبهم ومصادرة أموالهم(١)، بل وصل الأمر بهم في عهد أبى العباس السفاح(٢) إلي حد التمثيل بموتاهم ونبش قبورهم(٣).

نذكر من ذلك ما تعرض له أهل مدينة دمشق من تسلط العباسيين بهم سواء كانوا أحياء أو أمواتًا؛ حيث تشير المصادر أن "عبد الله بن علي"(٤) أمر عند دخوله دمشق بوضع السيف في رقاب أهلها، وأباح القتل فيها ثلاث ساعات، فقتل منهم نحواً من خمسين ألفاً(٥).

كذلك لم يسلم الأمويون الأمواتُ من بطش العباسيين، الذين صبوا عليهم جام غضبهم وتفننوا في التنكيل بهم، عندما قام قائد جيوشهم "عبد الله بن علي" بنبش قبور بنى أمية وإحراق عظامهم بالنار(٦)، فتسلط علي قبر معاوية بن أبي سفيان بالنبش والتخريب، فلم يجد فيه إلا خيطاً مثل الهباء، ونبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كالرماد، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا فيه جمجمة، وكان يوجد في القبر العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً، لم يبل منه غير أرنبة أنفه، فضربه بالسياط وهو ميت

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر، الرياض، ط٢، ١٩٨٥م، ص٤٠٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، مج٥، ص٧٨.

(٢) أول من جلس علي عرش الخلافة العباسية، بويع بمدينة الكوفة يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، واستقرت يده علي أرض العراق وخراسان والحجاز وبلاد الشام ومصر عدا بلاد الأندلس التى استقل بها عبد الرحمن الداخل، قضى معظم عهده في محاربة الأمويين والقضاء عليهم، وتوفي أبو العباس السفاح سنة ١٣٦هـ/٧٥٤م، فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٥٢.

(٣) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ط٢، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩م، ج١، ص٢٦٠.

(٤) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عم السفاح والمنصور، افتتح مدينة دمشق حاضرة الأمويين سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها، ج٣١، ص٥٤.

(٥) الذهبى: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، ط١١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، ج٦، ص٥٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٤٤، ٤٥.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٤٥.

ثم صلبه أياماً ثم أحرقه ودق رماده ثم ذره في الريح[١]. فلما رأي بنو أمية ذلك "اشتد خوفهم وتشتت شملهم، واختفى من قدر منهم علي الاختفاء"[٢]، ولم يفلت منهم إلا من كان رضيعاً أو هرب إلى الأندلس[٣].

لم يتوقف نبش القبور في العهد العباسي عند حد الصراع السياسي مع الأمويين، بل تعداه ليشمل الخلاف المذهبي مع العلويين، عندما أساء الخليفة العباسي "المتوكل علي الله" إلي نفسه بسياسته العنيفة التى انتهجها في معاملته ضد العلويين الشيعة، فبلغ بهم ما لم يبلغه أحد من خلفاء بنى العباس من قبله، عندما أمر جنوده سنة ٣٣٦هـ/٨٥٠م بنبش قبر الحسين بن علي رضى الله عنه في كربلاء وما حوله من الدور، وأن يحرث بالحيوانات ويبذر، ويسقي موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه[٤]. وقد أثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة أهل بغداد الذين ردوا علي الإهانات التى ألحقها بالعلويين بسببه في المساجد والطرقات؛ حيث "تألم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه علي الحيطان والمساجد، وهجاه الشعراء"[٥].

رابعاً: ظاهرة نبش القبور في الغرب الإسلامي:

لا يوجد في تاريخ الغرب الإسلامي بعدوتيه ظاهرة أكثر غموضاً وإبهاماً من ظاهرة التسلط علي القبور بالنبش والتخريب والتدنيس، ولا عجب في ذلك، فالمؤرخون اعتبروا مثل هذه الأفعال الشنيعة مروقاً وخروجاً علي الدين، وبالتالى لم يوردوا أخبارها إلا بحيطة وحذر كبيرين، ومن ثم لم يخصصوا لها سوي إشارات خجولة في مؤلفاتهم. والأغرب من ذلك، أن هذه الظاهرة كانت أقل الظواهر تعرضاً لتحامل المؤرخين علي من قاموا بارتكابها، فلم يستنزلوا عليهم اللعنات أو حتى كالوا لهم كل أصناف الشتائم والنعوت الذميمة، واكتفوا فقط

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج٥، ص٧٨؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى، مراجعة إبراهيم مصطفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ج٢٢، ص٥٠ ؛ ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج١، ص٢٦٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٤٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج٥، ص٧٨.

(٣) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٢، ص٥٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٤٥.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٣م، ج٢، ص٢٨٣.

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٧٥.

بذكر هذه الممارسات في فقرات هزيلة تميزت بالاختزال الشديد المقتصر علي خبر النبش وحده، دون الخوض في تفاصيله وجزئياته، في حين أُسْدِل ستاراً من الصمت علي وقائع هذه الأحداث المؤلمة في بعدها التاريخي، وهو أمر طبيعى؛ إذا وضعنا في الاعتبار أن السلطة هي من قامت بارتكاب هذه الأفعال المحرمة، وموقع المؤرخ الرسمي من السلطة، وموقفه من صراع الحاكم والمحكوم.

- **الأسباب المؤدية إلي نبش القبور**:

تطالعنا مصادر الغرب الإسلامي علي معطيات كثيرة تؤكد علي ممارسة المسلمين لظاهرة نبش القبور وتخريبها، رغم أن الشريعة الإسلامية والسنة النبوية وكذا أقوال الفقهاء والأئمة – علي اختلاف مذاهبهم – قد اتفقوا علي عدم جواز نبش قبور المسلمين أو المساس بها إلا بمسوغ شرعي، فإن هذا القاعدة الفقهية المجمع عليها لم تصمد أمام المطاحنات والحروب الدموية للحكام علي السلطة، إمعاناً منهم في إذلال الخصوم والمعارضين، فلم يدخروا جهداً في تنحيتها جانباً من خلال صياغة مسوغ شرعي آخر من بنات أفكارهم، وبمباركة فقهائهم، ينطوي علي استباحة تكفير الخصوم والمناوئين؛ إذ كان الصراع السياسي والخلاف المذهبي كفيلين بأن يدرج كل فريق خصمه وعدوه في عداد الكافرين(١)، وعندها يجوز استباحة دمائهم وانتهاك حرمة قبورهم. فتأويل النص المقدس وتوظيفه وتطويعه جرى لخدمة المشروع السياسي للفرق والمذاهب(٢).

وبذلك اتخذت القوي السياسية في الغرب الإسلامي من هذا المنظور مرجعية فقهية ومسوغاً شرعياً للتعامل مع الخصوم والمناوئين معاملة الكفار، الذين يجوز جهادهم وإزهاق أرواحهم، وانتهاك واستباحة حرمة قبورهم بعد رحيلهم عن الدنيا، ولعب فقهاء السلطة دوراً هاماً

---

(١) نبه اخوان الصفا إلي التعصب المذهبي الذي حدا بالفرق الإسلامية إلي أن "يكفر بعضهم بعضا، ويتبرأ بعضهم من بعض، ويري كل واحد منهم حل أخذ مال مخالفيه، ويشهد عليهم بالكفر والزندقة والخلود في النار": رسائل اخوان الصفا، القاهرة، ١٩٢٨م، ج٣، ص٥٣٧؛ للمزيد انظر ابن عساكر: تبيين كذب المفترى فيما نسب إلي الإمام أبي الحسن الأشعرى، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٣٠هـ، ص٤٠٥– ٤٠٧.

(٢) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، طور الازدهار، سينا للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٢٠.

في الترويج لهذا المنظور السياسي، وهو ما عبر عنه ابن حيان[١] حين قال: "الأمراء القاسطون قد نكبوا .. عن نهج الطريق .. والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صروف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم خائض في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم".

وهكذا، اعتمد الفقهاء والسياسيون علي هذا المسوغ، فاعتبروا كل من يخالف مذهبهم وناوأ حكمهم كافراً يجوز قتله واستحلال حرمته، ومن ثم شكل الصراع السياسي علي السلطة بين هذه القوي المتصارعة أحد الأسباب الرئيسية في بروز ظاهرة نبش القبور في الغرب الإسلامي، ولأن السياسة في رأي أحد الباحثين[٢] لعبة خطيرة لا تستقيم لصاحبها علي الدوام، فإن تاريخ الفترة محل الدراسة مليء بالرجال الذين تم التنكيل بهم لمعارضتهم للحاكم أو ثورتهم عليه، أو تدبيرهم الخطط للإطاحة به، وكثير من هؤلاء الذين نكل بهم كانوا إما وزراء أو قضاة أو متصوفة. فالتاريخ ليس أكثر من صورة للجرائم والمحن[٣]، أو حيل ومكائد يدبرها الأحياء للأموات[٤].

وانطلاقاً من المسوغ ذاته، فإن أغلب الذين امتحنوا في علاقتهم بالسلطة قد تعرضوا لأكثر من وسيلة من وسائل التنكيل والإذلال المعروفة آنذاك، كحز الرؤوس وتعليقها[٥]،

---

(١) نقلا عن ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م، ق٣، مج١، ص١٨٠–١٨١.

(٢) بسيم عبد العظيم: شعر الأسر والسجن في الأندلس، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١٣.

(٣) خضر محمد: الاغتراب والتطرف نحو العنف: دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٣.

(٤) بدوي عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج٢، ط١، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٤م، ص٢٠٧.

(٥) تفوق إشارات المصادر المتعلقة بتلك المظاهر عن الحصر ينظر علي سبيل المثال ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٦٦٨؛ نفسه، ق٢، مج١، ص٢٦–٢٧؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ج١، ص٢٤،٢٧٠؛ نفسه، ج٢، ص١٩٤، ١٩٥،٢٤٦؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م، ج١، ص٢١٣؛ ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٣، ط٣، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وإ.ليفى بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٢٣٥؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٩٤؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، ط٢، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٣م، مج١، ص٤٥٧.

والصلب لكامل الجسد[١]، والطواف بالأجساد والجثث[٢] والذبح[٣] والسلخ[٤]، وبتر الأعضاء[٥]، وجز شعر الرأس وحلق اللحية[٦]، وإحراق الجسد بالنار[٧]، والتسلط علي القبور

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص١٧٧؛ ابن سعيد: المغرب، ج١، ص٢٩٦؛ ابن عذارى: البيان المغرب،ج٤، تحقيق إحسان عباس، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٧٤–٧٥؛ نفسه، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتانى ومحمد بن تاويت وآخرون، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ص٥١؛ ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص١٩٤، ١٩٥؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٤٠.

(٢) ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج١، ص٤٥؛ نفسه، ق٣، مج١، ص٥٢٥–٥٢٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٧٣–٧٤؛ قسم الموحدين، ص٤١٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٢٦٠–٢٦١، ٢٩٤، ٣٠٧، ٣٧٣؛ نفسه، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، ١٩٧٢م، ص١١٧؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٨٦– ٤٨٧؛ نفسه، ج٣، ص٥١٧؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، تقديم عبادة كحيلة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٥٤–١٥٥؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص١٧٥؛ الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجى، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٨١م، ج١، ص٢٢.

(٣) للمزيد انظر القاضى عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج٧، تحقيق سعيد أحمد أعراب، مطابع الشويخ، تطوان، ١٩٨٢م، ص١١١؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص١٠٢؛ ابن عذارى: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص١٩٥؛ التجانى: رحلة التجاني، تقديم حسن حسنى عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا– تونس، ١٩٨١م، ص١٣٨–١٣٩.

(٤) كان ابن مرذنيش عندما اشتدت عليه الأمور في الأندلس، يعذب علي الأموال، ويرتكب في شأن تحصيلها القبائح، فيسلخ الوجوه، وينفخ في الأدبار. ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٢٥١.

(٥) ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج١، ص٤٦؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص١١٥، ٢٠٧؛ ابن عذاري: البيان، قسم الموحدين، ص٣٤٧–٣٤٨؛ التجاني: رحلة التجاني، ص٢١؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢، ص٢٥.

(٦) ابن بسام: الذخيرة، ق٤، مج١، ص١٢٤؛ ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج١، ص١٥٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص٧٦؛ قسم الموحدين، ص٥٨؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٥٦؛ Vincent Lagardere: Histoire et Societe en Occident Musulman Au Moyen Age, Madrid, 1995, P.53.

(٧) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١١٣، ١٩٠، ١٩١؛ ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٣٨؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال، ط٢، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م، ق٢، ص٢٣٩،٢٦٣؛ ابن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٨م، ص٢٠.

القبور بنبشها وإحراق ما بها[١] إمعانا في التشفى والانتقام من الخصوم، وغير ذلك من مظاهر المثلة والتشهير التى ارتكبت بحق المعارضين والمناوئين بهدف إدخال الرعب في نفوسهم وإثارة الخوف والهلع لديهم، وإبراز قوة السلطة التى اتسمت آنذاك بطابع الاستبداد[٢]؛ حيث كانت القسوة سمة الفترة وطابع العصر الوسيط في الغرب الإسلامي.

أما العامل الثانى في بروز ظاهرة نبش القبور، فهو الصراع الدائر بين أصحاب المذاهب الفقهية المختلفة سواء في المغرب أو الأندلس، عندما اتخذت القوي السياسية وكذلك الفرق الإسلامية المختلفة من الخلافات المذهبية ذريعة ليتهم بعضهم بعضاً بالزندقة والكفر، مما يسيغ استحلال القتل وارتكاب المحرمات، فالدولة العامرية مثلاً، أشعلت حرباً لا هوادة فيها علي الفكر المستنير، فطاردت الفلاسفة وبعض الشعراء، وضيقت الخناق علي الفكر العقلاني[٣]، لأن الكتب الفلسفية والكلامية تُعد من الكتب المذمومة بالأندلس، وتؤدي بصاحبها إلي التنكيل والقتل. فكل العلوم عند الأندلسيين ذات حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، اللذين يلصقان بصاحبهما لقب زنديق، فيلاحق ويقتل وتحرق كتبه ومصنفاته؛ حيث يقول المقري: "وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لها حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم، أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان؛ تقرباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت"[٤].

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٢؛ ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبري، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٦٢– ٦٣؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩م، ج١، ص٢٣٠– ٢٣١.

(٢) بدوي عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج٢، ص٢٠٧.

(٣) أحمد الطاهري: عامة قرطبة في عصر الخلافة، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٨م، ص٢٠٧.

(٤) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، مج١، ص٢٢١.

ولما كان المذهب المالكى هو المذهب المعترف به رسمياً في الأندلس، فإن الفقهاء المالكيين كانوا يقومون باضطهاد كل من يتبع مذهباً فقهياً يخالف مذهبهم، بل ربما اتهموه بالزندقة، فهم "لا يعرفون إلا كتاب الله، وموطأ مالك فإن ظهروا علي حنفى أو شافعى نفوه، وإن عثروا علي معتزلى أو شيعى أو نحوهما ربما قتلوه"(١).

وفي بلاد المغرب، لم يسلم الفاطميون الشيعة من هذا المسوغ، حيث أدرجهم أهل السنة ضمن الأعداء الكافرين، فخصصوا مؤلفات لـ "كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والكيد"(٢)، وهناك من أفتى بأن "جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الكفر"(٣)، وهناك من صنفهم في إحدي مقاماته علي أنهم "الكفرة المارقون .. أبان فيها كفرهم وزندقتهم"(٤)، بل وصل الأمر إلي حد نعتهم بـ "الإلحاد المارقين عن الدين إخوان الشياطين"(٥)، الذين يستحل "انتهاك حرماتهم واستحلال محارمهم"(٦).

وعلي كل حال، لقيت هذه الفتاوي الفقهية ترحيباً واسعاً من جانب القوي السياسية، مادامت تضفي مشروعية مطلوبة علي أفعالهم الشنيعة تجاه خصومهم ومناوئيهم، ففي القيروان وخلال القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادي، وبسبب الخلاف المذهبي بين السنة والشيعة، تعرض أبو إسحاق بن البرذون، وأبو بكر بن هذيل للضرب والتنكيل والقتل، ثم ربطت أجسامهما بالحبال، وجرتهما البغال مكشوفين، ثم صلبا نحو ثلاثة أيام ثم أنزلا ودفنا(٧). ودفنا(٧). وفي إفريقية، ومع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادى عشر الميلادي، قتل الشيعة

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص٢٣٦.

(٢) ابن غليون: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، تحقيق الطاهر أحمد، طرابلس، ١٩٦٧م، ص٢٥.

(٣) عياض: ترتيب المدارك، ج٤، ص٣٧٦.

(٤) المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية، ج٢، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ص٧٥.

(٥) ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، ص١٨٠.

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٧) القاضى عياض: ترتيب المدارك، ج٥، تحقيق محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، (د.ت)، ص١١٨-١١٩.

الشيعة حيث وجدوا وأحرقوا بالنار[١]. وقد تطور الأمر إلي ما هو أكثر من ذلك كما سنري لاحقاً.

وكانت تهمة الزندقة إذا لحقت بالمرء عرضت دينه للقدح، وعندئذ لا يسلم من البطش والملاحقة، فالفقهاء المالكية لم يتورعوا عن إلصاق تهمة الزندقة والكفر بالمرء عند أدنى بادرة منه للتفكير الحر، ومن الذين رموا بالزندقة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب، الذي كان هدفاً للمكائد والوشايات والتهم بالطعن في العقيدة، وانتهى الحال بنكبته بعد أن قبض عليه بفاس التى التجأ إليها، بعد أن حُكم عليه في غرناطة بتهمة الزندقة، فقتل بسجنه علي يد خصومه، الذين لم يتورعوا عن نبش قبره وإحراق جثته بالنار[٢].

نخلص من خلال هذا العرض إلي القول بأن قوي الغرب الإسلامي السياسية اعتبرت أعداءها ومناوئيها كفاراً، يجوز إذلالهم والتنكيل بهم، واستباحة قبورهم والتسلط عليها بالنبش والتخريب حتى بعد مغادرة الحياة، ومن خلال هذه الدراسة سنحاول أن نميط اللثام عن كثير من الحقائق التى كانت – ولا تزال– غامضة في هذا الشأن.

١) مظاهر نبش القبور في الغرب الإسلامي:

كان من الطبيعى أن يعرف مجتمع الغرب الإسلامي كمثيله في المشرق الإسلامي ظاهرة نبش القبور وتخريبها عبر تاريخه الطويل، وهذه الظاهرة علي وجه الخصوص جديرة بالبحث والدراسة، لتشعب مناحيها وشمولها علي مجالات جغرافية متعددة، وانضوائها تحت كيانات سياسية ومذهبية مختلفة، فضلا عن الطابع العسكري الذي غلف تاريخ الغرب الإسلامي بغلاف دموي. لذلك سوف نعمل خلال هذه الدراسة علي إبراز حوادث نبش القبور في مجتمع الغرب الإسلامي من خلال استحضار مجالي المغرب والأندلس، مع مراعاة الترتيب التاريخي والزمني للعصور المختلفة.

---

(١) التجانى: رحلة التجانى، ص٢٦٥؛ الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠إلي القرن ١٢م، نقله إلي العربية حماد الساحلي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج١، ص١٨١.

(٢) ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، ص٦٢– ٦٣؛ المقري: أزهار الرياض، ج١، ص٢٣٠–٢٣١.

ففي بلاد المغرب، وخلال العهد الفاطمي، الذي شهد احتدام الصراع المذهبي بشكل كبير بين المعز لدين الله[١] الشيعي وبين أهل السنة بالقيروان، حيث لم تلق سياسته – رغم مقدرته في المداراة والمداهنة – قبولاً لدي أهل السنة ومشيخة القيروان الذين ظلوا علي عدائهم للفاطميين الشيعة، يحثون الناس علي بغضهم والكفر بمذهبهم وعدم الرضوخ لهم، ولم يرهبهم ما تعرضوا له من بطش وأذي علي أيدى الفاطميين الشيعة[٢].

وبلغ من عداء المعز لأهل السنة أن أمر بنبش قبر عقبة بن نافع[٣] وإحراق بقاياه بالنار، وبعث لأداء هذا الفعل الشنيع خمسمائة من الشيعة ما بين فارس وراجل، توجهوا

(١) المعز لدين الله: هو أبو تميم مُعد بن إسماعيل المنصور أبي الطاهر بن القائم أبي القاسم محمد ابن عبيد الله المهدي، ولد بالمهدية في ١١رمضان سنة ٣١٩هـ/٩٣٢م، ولي أمر الدولة الفاطمية بعد وفاة أبيه سنة ٣٤١هـ/ ٩٥٢م وكان عمره وقتها ٢٤عاماً. كان يتطلع إلي غزو الديار المصرية منذ اليوم الأول لخلافته، فكان له ما أراد علي يد قائد جيوشه جوهر الصقلي بكل سهولة ويسر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، توفي بالقاهرة المنسوبة إليه في ربيع الأول سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م، بعد أن دامت ولايته ٢٣سنة. ابن حماد: أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، دراسة وتحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٤٠١هـ، ص٨٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج١، ص٢٢١، ٢٢٨؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ق٣، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤م، ص٤٨–٤٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، ج١، ص٥٩٩.

(٢) يدل علي شدة مقاومة البربر للفاطميين ورفضهم لهم كتاب ورد إلي المعز من صافى الاكريكى عامله علي قصر الأفريقى يذكر له فيه تناصر البربر عليه وتخريبهم لمنطقته، وأنه خائف علي نفسه من الهلاك. جوذر: سيرة الأستاذ جوذر، ص٩٣.

(٣) عقبة بن نافع: كان من خيار الولاة، قدر له اكتساح بلاد المغرب حتى أقصاه، ولد في أوائل الهجرة النبوية، وتولي إمارة جيش إفريقية مرتين: الأولي من سنة (٥٠– ٥٥هـ/٦٧٠– ٦٧٤م)، والثانية من (٦٠– ٦٤هـ/ ٦٨٠– ٦٨٤م) وذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان وولده يزيد، اشتهرت ولايته الأولي بتأسيس مدينة القيروان كقاعدة عسكرية لجيوشه سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م، ومنذ تأسيس هذه المدينة اتخذت العمليات العسكرية في المغرب طابعاً ثابتاً مستقراً، إذ كانت هذه العمليات من قبل مجرد غارات تقوم بها القوات الإسلامية ثم تعود بعدها إلي برقة أو مصر دون أن يكون هناك أثر ملموس يدل علي معنى الفتح والاستقرار. أما ولاية عقبة الثانية فقد اشتهرت – بعد تأسيسه لمدينة القيروان كنقطة ارتكاز عسكرية – بحملته الكبري التى وصل فيها إلي المحيط الأطلنطي في أقصي المغرب. ابن عبد الحكم: فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤م، ص٥٤ –٦٠؛ البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت)، ص ٧٣ – ٧٤؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص٣٢٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج١، ص٢٨، ٢٩، ٣٠.

جميعاً إلي قبر عقبة بن نافع بمنطقة تهودة[١] لتنفيذ ما أمرهم به المعز. وكان سبب نبش قبر عقبة بن نافع أن المعز أراد تحريف قبلة مسجد القيروان سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م، وهي القبلة التى كان عقبة قد قام بتوجيهها وتعيينها حين بنى مسجد القيروان، فتذمر أهل القيروان من ذلك، وقالوا: إن الله عز وجل يمنع المعز من تحريفها بدعاء عقبة بن نافع الذي توجه إلي الله به وقت تأسيسه جامع القيروان، فلما دنوا من قبره وحاولوا نبشه كما أمرهم المعز "هبت ريح عاصفة ولاحت بروق خاطفة وقعقعت رعود قاصفة كادت تهلكهم، فانصرفوا ولم يعرضوا له"[٢]، ويقال: إن هؤلاء الشيعة خافوا من العودة إلي المعز خشية أن ينكل بهم بعد إخفاقهم في مهمتهم، "فتاهوا في صحاري إفريقية حتى سمعوا أنه هلك، فحينئذ أتوا إلي أوطانهم معتبرين مستبصرين"[٣].

وفي نهاية عصر الخلافة الأموية في الأندلس، وتحديداً في عهد الخليفة الأموي هشام المؤيد بن الحكم[٤]، يسرد لنا صاحب الذخيرة[٥] الأسلوب المستعمل في قتل هذا الخليفة ونبش

(١) في أثناء عودة عقبة بن نافع من المغرب الأقصى بلغته فيما يبدو أخبار مقلقة جعلته يبعث بمعظم جيشه إلي القيروان ويستبقي معه عدداً قليلاً من جنوده، فاغتنم كسيلة زعيم البربر الفرصة كي ينتقم من عقبة الذي أساء معاملته، فهاجمه عند بلدة تهودة في أرض الزاب، حيث دارت معركة غير متكافئة من الناحية العددية استشهد فيها عقبة وأصحابه الذين بلغ عددهم زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة، ودفنوا هناك. ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٤٦– ١٤٧؛ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج١، ص٣٩.

(٢) البكري: المسالك والممالك، تحقيق وتقديم أدريان فان ليُوفن وأندري فيري، ط٢، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٢م، ج٢، ص٧٤٢– ٧٤٣؛ نفسه، المغرب، ص٧٤.

(٣) مؤلف مراكشي مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ١٩٨٦م، ص١١٤.

(٤) هشام بن الحكم: ولد بقرطبة سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م، وكان والده الخليفة الحكم المستنصر يتطلع إلي أن يلى عهده بعد أن تقدمت به السنون، فنشأ هشام كبقية أمراء بنى أمية في جو قرطبة وضاحيتها الزهراء الحافلة بفنون المتعة والرفاهية، وتعلق به والده الحكم؛ لأنه لم يعش له من الولد غيره، فاختار له أفضل المؤدبين من الذين كانت تزخر بهم قرطبة، وكان يبلغ من العمر عند موت أبيه الحكم الثانية عشرة، فبويع بالخلافة يوم الإثنين ٣ صفر ٣٦٦هـ/٩٧٦م، فحكم الأندلس محجوراً عليه تحت ظل العامريين. ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، ص٢٠٦؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص١٩٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٢٤٣؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٤٣ ، ٤٤.

(٥) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج١، ق١، ص٤١–٤٢.

قبره علي يد خصمه وعدوه علي بن حمود[١]، الذي كان يبحث عنه أشد البحث بعد دخوله قصر الخلافة بقرطبة، فذكروا له أنه قتل وعندما "عرض عليه قبره، أمر علي بنبشه، فأخرج الشخص، وشهد أنه هشام .. وما كان في جسده شيء من أثر السلاح، فتوهم فيه الخنق، وأمر علي بتجهيزه إلي أهله، وأنذر طبقات الناس للصلاة عليه، فدفن لزيق أبيه الحكم".

في حين يري ابن الأثير أن الخليفة هشام المؤيد لم يُقتل، بل خُلع علي يد محمد بن هشام بن عبد الجبار[٢] بعد أن حكم البلاد ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام[٣]؛ حيث أخفاه ابن عبد الجبار عن أعين الناس لفترة من الوقت ليخلو له الطريق نحو الحكم، وتصادف أن مات في تلك الفترة نصراني، والبعض يقول يهودى، يشبه المؤيد إلي حد كبير، فأبرزه ابن عبد الجبار للناس، وذكر لهم أنه المؤيد هشام، فلم يشكوا في موته، وصلوا عليه ودفنوه في مقابر المسلمين، وكان ذلك في ٢٨شعبان سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م[٤].

ويتفق ابن عاصم مع ابن الأثير فيما ذهب إليه بشأن مصير الخليفة هشام المؤيد[٥]، عندما قرر أن "الذي صلب كان غير جثمان الذي طلب، وذلك الرأس الذي طيف به علانية

---

(١) علي بن حمود: مؤسس الدولة الحمودية في الأندلس، بعد انقراض الخلافة القرطبية بها سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م، ومقتل سليمان بن الحكم الأموي، حيث بايعه الناس وتلقب بلقب المتوكل علي الله، وقتل علي يد غلمانه الصقالبة في ذي القعدة سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م، وكانت ولايته سنة وتسعة أشهر. ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج٨، ص١٠٠،٩٧؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص٢٦؛ المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلي آخر عصر الموحدين، تحقيق وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط١، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩م، ص٤٩–٥٠.

(٢) ابن عبد الجبار: كان شاباً مغامراً من شباب بنى أمية الأندلسيين، قاد بعض شُبان بنى أمية للانقلاب علي العامريين، فدبر مؤامرة لخلع عبد الرحمن شنجول من الإمارة بقرطبة، مستغلاً في ذلك خروجه من قرطبة لقتال النصارى، وبالفعل نجح ابن عبد الجبار في تنفيذ ما سعى إليه هو وأصحابه، عندما تمكنوا من اقتحام قصر قرطبة، وقتل صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر، فبايع محمد بن عبد الجبار لنفسه بالإمارة وبايعه أصحابه، واتخذ لنفسه لقب المهدى، وأرغم هشام المؤيد علي التنازل فتنازل له بعد أن مكث في منصب الخلافة ٣٣سنة. كان ذلك في ١٧جمادى الأولى سنة ٦٩٩هـ/ ١٠٠٩م. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج٥، ص٧٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، ط١، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٣م، ص٢٤٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج٧، ص٣٧٠.

(٥) عاد الخليفة الأموي هشام المؤيد وتولى الخلافة ثانية في سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م.(ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ج٣، ص١٠٠–١٠١)، ثم خُلع ثانية سنة ٤٠٣هـ/١٠١٣م.(نفسه والجزء، ص١١٣)، وبعد ذلك غاب عن الناس خبره واختلف في أمر مصيره. ابن عذاري: البيان، ج٣، ص١١٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، مج٥، ص٢٢.

كان غير رأسه، ومن قال: إنه كان، فهو عندهم كاذب لا محالة، ويزعمون أن ذلك الذي قتل هو رجل كان يشبهه، فشبه لهم به، وليس هو.."[١]، وسواء صحت رواية نبش قبر الخليفة الأموي هشام المؤيد، أو أن الذي تم نبش قبره شخصُ آخر يشبهه، فإن أحداثها تومئ بشيوع هذا النوع من الجرائم في الأندلس.

وخلال عهد الدولة العامرية في الأندلس، لم نعثر علي إشارات تفيد بشيوع ظاهرة نبش القبور خلال هذا العصر، إلا أننا عثرنا في المقابل علي إشارة في غاية الأهمية عن قيام المنصور بن أبي عامر[٢] بحماية قبر أحد القديسين النصارى من التخريب والنبش خلال غزوته علي ناحية شانت ياقب[٣] Santiago في الثالث والعشرين من جمادى الأخرة سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، التى تمثل أكثر الأماكن قدسية لدي النصارى؛ إذ كانت تلك الناحية مستقراً لكنيسة شانت ياقوب مركز أسبانيا النصرانية، ومزارها المقدس ورمز علاقتها الروحية، وكان لشانت ياقب مكانة مميزة لدي الأسبان؛ إذ كانت منزلتها عندهم تأتي بعد القدس وروما[٤].

---

(١) ابن عاصم: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق صلاح جرار، دار البشير للتوزيع والنشر، عمان، الأردن، ١٩٨٩م، مج١، ص١٨١.

(٢) المنصور بن أبي عامر: استوزره الخليفة الحكم المستنصر لولده هشام، فترقى أمره حتى بلغ ما بلغ من الجاه والسلطان، وصارت الدولة والعرش والقصر والخليفة الصبي وأم الخليفة، كل هؤلاء طوع يمينه. اتخذ لنفسه لقب الملك، وأصدر أوامره بأن يخاطب بالملك المنصور، فقام "بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إنافة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة؛ فانتظمت له الممالك". ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٢٦٥؛ المراكشي: المعجب، ص٣٠. كانت حياته نشاطاً متواصلاً دام خمساً وعشرين سنة وأربعة وأربعين يوماً، قضاها كلها في جهاد النصارى المتاخمين لحدوده، ورغم اشتداد وطأة المرض عليه إلا أنه استمر في قيادة جنده طيلة أربعة عشر يوماً، حتى فاضت روحه بمدينة سالم في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م. ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق٤، مج١، ص٧٣– ٧٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٢٩٣؛ المراكشي: المعجب، ص٣٨–٣٩؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص٤٠٠، ٤٠٢.

(٣) كنيسة عظيمة، تقع في ثغور ماردة، وهي مبنية علي جسد يعقوب الحواري، يذكرون أنه قتل في بيت المقدس، فوضعه تلامذته في مركب، فجرى به المركب في البحر الشامي، إلي أن خرج به إلي البحر المحيط، حتى انتهى به إلي موضع الكنيسة، فبنيت الكنيسة عليه وسميت باسمه، يقصدها الناس من بلاد الفرنجة وروما والقسطنطينة في يوم معروف جعل عيداً لها. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٤٨.

(٤) الحميري: الروض المعطار، ص ٣٤٨؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص ٤١٤– ٤١٥؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص ٥٥٩ – ٥٦١.

وقد احتلت كنيسة شانت ياقب تلك المكانة لوجود قبر بها يزعمون أنه قبر الحواري يعقوب أحد حواريى عيسى عليه السلام، والذي كان أسقفاً لبيت المقدس، وقد خرج من القدس ليبشر بدين المسيح، حتى وصل هذه البقعة، ولما مات بعد عودته إلي بلاد الشام حمل أصحابه جثته ودفنوها بهذه الكنيسة، وسميت الكنيسة باسمه سانت يعقوب؛ وتقديساً له حلف النصاري باسمه وكانوا يحجون إليه ويعتكفون عنده(١).

حرص المنصور بن أبي عامر في هذه الغزوة علي الوصول إلي كنيسة شانت ياقب لتحطيم الأسطورة الحربية لشانت ياقب المزعوم، وطعن الأسبان في صميم زعامتهم الدينية. إذ كان المعتقد لدي النصارى الأسبان أن شانت ياقب يخرج للمحاربين علي هيئة ملاك بيده سيف ويمتطى فرسا أبيض ثم يأخذ في معاونتهم علي قتال المسلمين إلي أن يتحقق لهم النصر، لدرجة أنهم أطلقوا عليه Matamoros أي قاتل المسلمين(٢). والمهم في هذه الرواية أن المنصور بن أبي عامر عندما اقتحم شانت ياقب بالقوة وضرب مبانيها وهدم كنيستها العظمي لم يتعرض لقبر القديس شانت ياقب بأية أذى، لأنه من الحواريين، بل أنه وكل به من يحفظه ويدفع الأذى عنه، باعتباره مكاناً له قدسيته عند النصارى(٣)؛ وخوفاً من تخريب القبر أو نبشه، وهي واقعة تبين بجلاء مدي التسامح الدينى السائد في الأندلس آنذاك.

وفي عهد ملوك الطوائف في الأندلس (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣١-١٠٩١م)، وهو العهد الذي اتسم بالتفكك والانقسام السياسى، وتفاقم الصراع الداخلى بين ملوك هذه الدويلات، واستنصار بعضهم بقوى النصرانية علي بعضهم الآخر، ومحاولة كل منهما الاستيلاء علي إمارة جاره، لم يسلم الوزراء الذين خاضوا في الصراعات السياسية آنذاك من نبش قبورهم بعد رحيلهم، فقد تعرض وزير دولة المرية ومدبر سلطانها أحمد بن عباس للتنكيل والإذلال والسجن وحز الرأس، والتسلط علي قبره بالنبش والتخريب بإيعاز من خصمه ملك غرناطة

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٦٧.

(٢) أحمد مختار العبادى: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص٢٣٢.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٦٧؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص ٤١٥؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف، لبنان، ١٩٦٣م، ص٣٣٢.

باديس بن حبوس[١]، بسبب معارضته لبقاء الوزير اليهودي إسماعيل بن نغدله[٢] علي رأس حكومة غرناطة.

ويرجع سبب تحامل ابن عباس علي باديس إلي أن ابن عباس عربي يكره البربر ويحتقر اليهود، فتحامل علي باديس وامتعض من سيده زهير لتحالفه مع ذلك البربري الذي استوزر يهودياً[٣]، وكان ابن عباس هذا قد أرسل رسائله من قبل إلي حبوس بن ماكس والد باديس، وكذلك إلي رؤساء قبيلة صنهاجة التى ينتمى إليها حبوس يطلب منهما فيها إبعاد

(١) باديس بن حبوس: يكنى أبا مناد، ولي عرش غرناطة بعد موت أبيه، وتنازل شقيقه الأصغر بلقين له، وبمساعدة وزير أبيه إسماعيل بن نغدلة، حكم غرناطة وما حولها في الفترة من ٤٢٩– ٤٦٧هـ/١٠٣٧– ١٠٧٤م. للمزيد انظر الشنترينى: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٦٦٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٦٤؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٣٠؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٣٥.

(٢) إسماعيل بن يوسف بن نغدلة: ولد في قرطبة في ربيع سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م، حيث تلقى تعليمه التلمودي بها، درس النحو حتى أصبح متمكناً من الأدب العربي والعبري، وأصبح قادراً علي نظم الشعر بالعربية والعبرية، انتقل بعد ذلك للاستقرار في مالقة سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م، وكان يكتسب رزقه من بيع التوابل، وفي أحد الأيام طلبت منه جارية أن يكتب لها خطاباً ترفعه إلي أمير غرناطة حبوس بن ماكس، فكتبه لها، وعندما وصل الخطاب إلي وزير حبوس أبي العباس بن العريف، أعجب بالأسلوب الذي كتب به الخطاب، وسأل عن كاتبه، وعرف أنه إسماعيل بن نغدلة اليهودي، فقابله الوزير أبي العباس، وعرض عليه أن يعمل معه في خدمة أمير غرناطة حبوس، فوافق إسماعيل ورحل معه إلي غرناطة، حيث عينه الوزير جابياً لأموال المملكة، فجنى إسماعيل أموالاً طائلة من هذه الوظيفة، وعندما توفي الوزير أبي العباس، استغل إسماعيل ذلك وظل يتقرب من أمير غرناطة حبوس، ويظهر بدهاءً خبرته وقدرته، إلي أن أصدر حبوس أمراً بتعيين إسماعيل مستشاراً له ووزير أول لمملكته لعدم ثقته في العرب والبربر، وأصبح ابن نغدلة بذلك أول يهودي في الأندلس يتقلد منصب الوزارة، وتوفي سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م فحزن لموته يهود الأندلس ويهود الخارج. ابن بلكين: مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بنى زيري بغرناطة المسماة بكتاب التبيان، نشر وتحقيق إ. ليفى بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م، ص٣٠–٣١؛ ابن عذاري: البيان، ج٣، ص٢٦٤–٢٦٥؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٣٨– ٤٣٩؛ محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٣٩ ؛
Ashtor, Eliyhu: The Jews of Moslem Spain, Vol 1,1979, P.391; Ashtor,: The Jews, Vol 2,P.52, 56-58; Gonzalo Maeso, David,: Garnata Al- Yahud (Garnada en la Historia de Judaismo Espanol), Universidad de Garnada, 1963, P. 75.

(٣) دوزى: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م ص٢٨؛ محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ نشأتها حتى استيلاء المرابطين عليها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م، ص١١١.

الوزير اليهودي ابن نغدله[١] من حكومة غرناطة، مبيناً لهم مدي فداحة الجرم الذي يرتكبونه ببقاء هذا اليهودى في منصبه، مذكراً إياهم بأنه أصل الشر في المملكة[٢].

ورغم تلك المحاولات، لم يلقَ طلب وزير المرية ابن عباس أي استجابة من حبوس ولا رؤساء صنهاجة، بسبب ما كان لهذا اليهودي من خصال وصفات[٣] جعلت حبوس وابنه باديس يتمسكون به رغم إهانته لدينهم، عندما "جاهر بالكلام في الطعن علي ملة الإسلام"[٤]، بل تعدي الأمر ذلك، عندما صار البعض من المسلمين ينافقونه؛ خوفاً من سطوته "حتى كان يغسلُ يده من القُبل، ويُتمدح بالطعن علي الملل"[٥]، كما أن دولتهم تعرضت لمقاطعة

(١) إشارت إليه المصادر الإسلامية باسمه العربي الذي عرف به بين المسلمين، إذ كان من عادة النصارى واليهود في الأندلس أن يحملوا أسماً عربياً إلي جانب اسمهم الذي يعرفون به بين أقرانهم. وظهر الاختلاف واضحاً بين المصادر الإسلامية في ضبط اسمه، فابن بسام ينعته بـ "إسماعيل بن النغريلي"(الذخيرة، ق١، مج٢، ص٧٦١). وصاعد الأندلسي = يذكره باسم "إسماعيل بن الغزال". (طبقات الأمم، نشر لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢م، ص٩٠). وابن سعيد الأندلسي ذكره باسم "إسماعيل بن نغرله" (المغرب في حلي المغرب، ج٢، ص١١٤). وابن عذاري يقول "إسماعيل بن نغزالة". (البيان المغرب، ج٣، ص٢٦١). ويشير إليه ابن الخطيب بـ "إسماعيل بن نغرالة" (أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٣٠). في حين يسميه المقري بـ "إسماعيل بن نغدلة" (نفح الطيب، مج٤، ص٤٢٢)، وهى التسمية الأقرب إلي الصواب؛ لأن اللقب الذي أطلقه إسماعيل علي نفسه هو "ناغيد"، ويعنى بالعبرية الحاكم أو المدبر أو الأمير. ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٧٦٧؛ ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ج٣، ص٨ من مقدمة المحقق.

ولقب "نغدلة" الذي أورده المقري استقر عليه كل من دوزي وآنخل بالنثيا. ملوك الطوائف، ص ٣٩؛ تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص١٥.

(٢) Ashtor,: The Jews, Vol 2, P.70-71.

(٣) كان في "اليهودي من الكيس والمداراة للناس ما طابق الزمان الذي كانوا فيه والقوم الذين يرمونهم، فاستعمله (حبوس) لذلك استيحاشاً من غيره .. ولأن هذا اليهودي ذمي، لا تشره نفسه إلي ولاية". الأمير عبد الله بن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله، ص٣١. ويصفه ابن الخطيب نقلاً عن ابن حيان بقوله "وكان هذا اللعين في ذاته، علي ما زوى الله عنه من هدايته، من أكمل الرجال علماً وحلماً وفهماً وذكاءً ودماثةً وركانةً ودهاءً ومكراً .. ومعرفة بزمانه، ومداراة لعدوه، واستسلالاً لحقودهم بحلمه". الإحاطة، ج١، ص٤٣٨. وأغلب الظن أن تلك الصفات هي التى ساعدت صاحبها علي أن يستحوذ علي عقل وإحساس كل من حبوس وباديس.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٧٦٦.

(٥) نفس المصدر السابق والصفحة.

حلفائها بسبب هذا اليهودى، وإزاء هذا التعنت قام الوزير أحمد بن عباس بإيغار صدر أميره علي باديس، وتمكن من الوقيعة بينهما، عندما اقنع أميره زهير بإلغاء الحلف الذي كان بين المرية وغرناطة، فألغي الحلف الذي كان فى غاية الأهمية لغرناطة، الإمارة الصغيرة التى تتعرض لأطماع الإمارات المجاورة لها(١). كما وجه وزير المرية ضربة أخري لغرناطة، عندما أوعز إلي أميره زهير بعقد معاهدة صداقة مع صاحب قرمونة محمد بن عبد الله البرزالي الذي يعود بنسبه إلي قبيلة زناتة المنافسة لصنهاجة(٢).

ولعل سبب تمسك الأمير باديس بابن النغدلة اليهودى، هو الدور الكبير الذي قام به هذا الوزير من أجل تولية باديس عرش غرناطة بعد وفاة أبيه حبوس سنة ٤٠٨هـ/١٠٢٦م، حيث أسهم في إقناع حبوس قبل وفاته بأن يعهد لباديس من بعده، كما حث بلقين علي التنازل لأخيه، وأقنع من استطاع من زعماء صنهاجة بمناصرة باديس، ولذلك عندما مات حبوس، قام عدد من زعماء صنهاجة بمبايعة بلقين، لكنه رفض قبول البيعة، وأعلن أنه سيبايع لأخيه باديس حسب رغبة والده(٣). وهكذا نجح الوزير اليهودي فيما سعي إليه، وصدق ظنه في باديس الذي قدر جهوده في خدمة والده حبوس، وفي العمل من أجل وصوله إلي عرش غرناطة، فقام بتكليفه بمنصب الوزير الأول لمملكة غرناطة(٤).

لم يضعف هذا الأمر من عزيمة ابن عباس، الذي استمر في محاولاته المتكررة لإقناع باديس بالتخلى عن وزيره اليهودى، فبعث إليه برسالة يبين له فيها الإثم الكبير الذي يقترفه بتولية يهودي علي رقاب المسلمين، ويؤكد أن إبعاده سيؤدي إلي إحلال السلام بين مملكتى المرية وغرناطة، وأن بقاءه سيؤزم العلاقة بين غرناطة ومن حولها من الممالك المتحالفة، إلا أن باديس لم يستجب لطلب ابن عباس ورفض إبعاد الوزير اليهودي، وأرسل قاضي غرناطة

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢١٦– ٢١٧ ؛ Ashtor,: The Jews, Vol 2, P.71-72.

(٢) Ashtor,: The Jews, Vol 2, P.72.

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبدالله، ص٣٤؛ دوزي: ملوك الطوائف، ص٢٨؛ Ashtor,: The Jews, Vol 2, P.72 .

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٦٤؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٣٨؛ أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٣٠.

إلي زهير صاحب المرية ليقنعه بتجديد معاهدة التحالف بين إمارتيهما، لكن زهير رفض طلبه(١).

وفي شوال من سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م حل زهير فجأة ودون سابق أنذار علي أرض مملكة غرناطة ومعه وزيره ابن عباس وفرقة من جيشه وعسكر علي مقربة من باب مدينة غرناطة، دون أي مراعاة للقواعد والمراسيم المعمول بها في الزيارات أو عند الالتقاء بين إمارات الطوائف(٢)، وكان زهير يهدف من زيارته تلك إلي إهانة باديس وإخافته(٣)؛ حيث "أقبل ضارباً سوطه حتى تجاوز الحد الذي جرت عادته بالوقوف عنده .. حتى وصل إلي باب غرناطة"(٤).

كان من الطبيعى أن يستثير هذا التصرف المشين غضب وكراهية باديس، ولكنه رغم كل هذا، أخفى امتعاضه من هذا التصرف، واستقبل زهير بكل حفاوة وترحاب، ولم يظهر له شيئاً من غضبه. وفي غرناطة دارت بينهم عدة مفاوضات باءت بالفشل(٥)؛ بسبب تشدد موقف زهير ووزيره ابن عباس؛ حيث كان المطلب الوحيد لهم، هو إزاحة الوزير اليهودي، الذي يرفض باديس أن يتخلى عنه(٦)، ورغم ذلك لم ييأس باديس الذي أرسل أخاه بلقين رسولاً من قبله إلي ابن عباس لتصفية الخلافات القائمة بين الإمارتين، فلم يجد بلقين إلا التعنت والجحود من جانب ابن عباس، الذي رد علي بلقين عندما حاول أن يستعطفه باكياً ومعانقاً(٧) "وفر عليك هذه المظاهر الكاذبة، والعبارات الفارغة، فإنها لا تترك أي أثر في

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٦٥٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٦٩؛
Ashtor,: The Jews, Vol 2, P. 74.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٦٩.

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله، ص٣٢– ٣٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٦٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢١٦؛ Ashtor,: The Jews, Vol 2, P. 75; Dubnov, Semon, Markovic, :History of The Jews from The Roman Empire To The Early Medieval Period, Vol.2, New York, 1973, P.625 .

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٦٩.

(٥) ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٦٥٧؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٦٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢١٦ – ٢١٧.

(٦) Ashtor,: The Jews, Vol 2, P.75 .

(٧) ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٦٦١.

نفسي"[١]. وعندما عاد بلقين إلي أخيه باديس أفضى إليه بكل ما دار بينه وبين ابن عباس، فأجمعوا علي محاربة زهير والإيقاع بوزيره الملعون ابن عباس.

ولما أخذ زهير في الانصراف ومن معه إلي المرية، فوجئوا بكمين أعده لهم باديس بإحكام في إحدى ممرات جبال غرناطة الضيقة؛ حيث أرصد لهم الخيل في كل مضيق، ودارت عليهم الدائرة[٢]، وخلال تلك المعركة تمكن جنود باديس من قتل حاكم المرية زهير الصقلبي[٣]، وأسر وزيره ومدبر سلطانه والغالب علي أمره ابن عباس، الذي سيق إلي سجن غرناطة، وبذل في فداء نفسه أموالاً كثيرة، كما جاء مبعوث ابن جهور صاحب قرطبة ليتوسط في الإفراج عنه[٤]، لكن باديس رفض ذلك، وأمر بقتله وحز رأسه، ووريت الرأس خارج قصر الإمارة، وكان ذلك في آخر شوال ٤٢٩هـ/١٠٣٧م[٥]، "متأولاً لإثارته الفتنة، ونقم ونقم عليه أشياء كثيرة قبل ذلك، من أقاويل خشنة ومعاملات قبيحة عرفه بها"[٦]، منها أن ابن ابن عباس هذا هو الذي دفع زهيراً إلي رفض التحالف مع باديس، وأشار عليه بضرورة غزو باديس في عُقر داره[٧]، فقد بلغ من تأثير ابن عباس علي أميره زهير أنه "كان لا يحدث أمر إلا بإشارته وبعد مشاورته"[٨]، وكان هدف ابن عباس من وراء تلك الوقيعة هو التخلص من أميره زهير؛ لينفرد بحكم دولة المرية؛ لذلك سعى إلي هلاكه وحرص علي زواله[٩].

---

(١) دوزي: ملوك الطوائف، ص٢٩.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٩١.

(٣) نفسه والجزء، ص١٧٠–١٧١؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ق٢، ص٢١٦– ٢١٧.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٦٦٤؛ ابن عذاري: البيان، ج٣، ص١٧١؛ دوزي: ملوك الطوائف، ص٣١، ص٣١، ٣٢.

(٥) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبدالله، ص٣٥؛ ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٦٦٤؛ ابن سعيد: المغرب، ج٢، ج٢، ص٢٠٦ ؛ دوزي: ملوك الطوائف، ص٣٣.

(٦) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبدالله، ص٣٥.

(٧) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٩٣.

(٨) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٩) ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٦٦٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٦٩–١٧٠؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢١٦.

وعلي كل حال، نبش قبر أحمد بن عباس في اليوم التالي لقتله لإضافة رأسه مع جسده؛ حيث يذكر أحد الموالي أن باديس قال له: "خذ رأسه وواره مع جسده، فنبشت صداه وأضفته إلي جسده بجنب قبر أبي الفتوح – سيذكر لاحقاً – قتيل باديس أيضاً، وقال لي: ضع عدواً إلي جنب عدو إلي يوم القصاص"(١). وعُرف عن ابن عباس هذا أنه "من أشد الناس حماقة واستخفافاً، مُثيراً للشر، مؤرشاً بين الملوك؛ وكان الغالب علي أمر زهير؛ إذ لم يكن زهير يصلح لشيء لغباوته وجهله"(٢). ولذلك سُر ابن نغدلة اليهودي كثيراً بمقتل ابن عباس(٣).

وبالمثل، فإن مثل هذا المناخ لا يمكن إلا أن يفرز ثقافة القهر والإذلال والتنكيل وارتكاب المُحرمات، فقد برز خلال عهد باديس أيضاً **ظاهرة اغتصاب الموتي في قبورهم** دون مراعاة لحرمة الأموات، فقد كلم الصنهاجيون باديس بن حبوس في جثة صاحبهم المقتول مع أبي الفتوح الجرجاني(٤)، وكان أبو الفتوح من مشجعى يدير بن حباسة ومحرّضيه ومحرّضيه علي القيام علي ابن عمه باديس(٥)، فأمر بإسلامها إليهم، فخرجوا بها علي نعش إلي المقبرة من فورهم، فأصابوا قبراً قد احتفر لميت من أهل البلد، فاغتصبوا فيه صاحبه

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٦٦٨.

(٢) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله ، ص٣٤.

(٣) Dubnov,: History of The Jews from The Roman Empire, Vol.2, P.626 .

(٤) أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني، ولد في بغداد سنة ٣٥٠هـ/٩٦٠م حيث تلقى تعليمه، ثم هاجر إلي الأندلس الأندلس سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م، وعندما التحق بخدمة باديس بن حبوس تورط في شؤون السياسة، ولحقته تهمة التدبير ضد باديس مع ابن عمه يدير بن حباسة، فقبض عليه قداح عبد باديس، وحلقت رأسه، وأركبوه علي بعير وخلفه عبد أسود ضخم يوالى صفعه، ثم ألقى في حبس ضيق ومعه رجل من أصحاب يدير أسر في الواقعة بين باديس وإسماعيل بن عباد، فأقام في الحبس إلي أن قدم باديس وضربه بالسيف وحز رأسه في ٢٨ محرم سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م، وأمر باديس غلامه بضرب عنق الآخر، ودفن الجرجانى إلي جانب أحمد بن عباس. ابن بسام: الذخيرة، ق٤، مج١، ص١٢٤؛ ابن بشكوال: الصلة، ج١، رقم ٢٩٣، ص٢٠٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنأووط وتركى مصطفي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، ج١٠، ص٢٨٩؛ عبد الملك المراكشى: الذيل والتكملة، مج٥، س٨، ص٣٣٨؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٥٥– ٤٥٨.

(٥) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج١، ص ٤٨٢؛ بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص١٠٧ – ١٠٨.

وصبوا صاحبهم فيه، فواروه التراب من غير غسل ولا كفن، وانطلقوا لسبيلهم، وعجب الناس من جرأة هؤلاء الصنهاجيين وتسامحهم في الاغتصاب حتى الموتي في قبورهم"[١]. وباستحضار المسوغ السالف، يمكن لنا أن نفسر لماذا استحلت هذه الكيانات السياسية قتل خصومهم ومناوئيهم، بل ونبش قبورهم وانتهاك حرماتهم إمعاناً في شهوة الانتقام، طالما أن الأمر يتعلق بمصلحة القابعين علي رأس الهرم السياسي.

وفي عهد بنى يفرن ملوك فاس، كانت كرامات تميم بن زيرى أمير بنى يفرن سبباً في نبش قبره بعد وفاته، حيث تشير رواية ابن أبي زرع أن هذا الأمير كان مولعاً بجهاد برغواطة، فكان يغزوهم في كل عام مرتين، فيقتل ويسبى منهم، إلي أن توفى سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م. وعندما قتل ولده في حرب لمتونة سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م، أتوا به ليدفنوه إلي جانب قبر أبيه تميم، فسمعوا من قبره تكبيراً عظيماً وتشهداً، فنبشوا قبره فوجدوه لم يتغير منه شيء. وتصادف أن رآه أحد قرابته في منامه في تلك الليلة، فسأله عن هذا التكبير والتشهد الذي سمعوه عند قبره، فقال: "ملائكة وكلهم الله بقبري يكبرون ويهللون ويسبحون ويكون أجر ذلك لي فلا يقطع لي عمل إلي يوم القيامة، فقال له : وبما نلت ذلك وبلغت من الله تعالى هذه المنزلة حتى أكرمك هذه المكرمة ؟ قال : بجهادى في الكفرة برغواطة وفعلى فيهم في كل سنة"[٢].

وإذا كانت النصوص التاريخية لا تسعفنا في رصد نماذج واضحة لظاهرة نبش القبور **خلال عصر المرابطين،** فإننا نتوفر علي نازلة في غاية الأهمية تبين بوضح شيوع تلك الظاهرة في المجتمع الأندلسى، أوردها الفقيه أبو الوليد بن رشد القرطبي[٣]

---

(١) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج٥، س٨، ص٣٤١.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١١٠.

(٣) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، ولد في مدينة قرطبة عاصمة الحكم الأموي وقاعدة المالكية بالأندلس سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م في بيت ورث العلم والصلاح وخطة القضاء، في عهد كانت فيه الأندلس تعيش محنة قاسية، فأهلها تفرقوا فرقاً، وتغلب في كل جهة منهم متغلب، عمل كأستاذ للمالكية وكرجل القضاء والمشورة، وكسياسى بارع يهتم بالأمور العامة للمسلمين ويتفاعل معها، وكمستشار أعلي للبلاط المرابطي، وتوفي سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م. عبد الواحد المراكشى: المعجب، ص٧٠؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة وبشار عواد معروف، ط١ ، دار الغرب الإسلامي، تونس، مج١، س١، ٢٠١٢م، ص٥٥٠.

(ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) الذي سئل في نازلة عن "رجل دفن أربعة من الولد في مقبرة من مقابر المسلمين، فلما كان بعد عشرة أعوام من دفنه إياهم غاب الرجل من البلد، فجاء الحفار، فحفر علي قبور أولئك الأطفال قبراً لامرأة، ودفنها فيه. ثم أن والد الأطفال جاء من سفره، بعد دفن المرأة بثلاثين يوماً، ولم يجد لقبر بنيه أثراً غير قبر المرأة، فأراد نبشها، وتحويلها إلي موضع آخر؛ ليقيم قبور بنيه علي ما كان عليه، هل له ذلك أم لا ؟ فأجاب علي ذلك بأن قال: لا يجوز أن ينبشها، وينقلها عن موضعها، ولا يحل ذلك له؛ لأن حرمتها ميتة كحرمتها حية، فلا يحل له أن يكشفها ويطلع عليها، وينظر إليها ولو كان ذا محرمًا؛ حيث لا يسوغُ له ذلك فيها بعد هذه المدة؛ إذ لا شك في تغيرها فيها"(١).

وخلال فترة الانتقال من المرابطين إلي الموحدين، وفي محاولة للبحث في موقف القوى السياسية في المغرب والأندلس من بعضها البعض، وتجنباً لسرد تاريخي ممل، وتفادياً لما تحفل به مصادر الفترة من حوادث العنف – يضيق المجال عن حصرها – سوف نعمل علي تقديم إشارات ذات دلالة قصوى للحرب الدعائية بين المرابطين والموحدين. فقد كانت كل دولة منهما ترى في الدولة القائمة وأتباعها، ليسوا خصومًا ومناوئين سياسيين فحسب، بل كفاراً يجب جهادهم ومعاملتهم – وهم إخوان لهم في الدين – معاملة العدو الكافر. وهو ما ينسحب علي المرابطين الذين عمد زعيمهم عبد الله بن ياسين إلي تخميس المنهزمين أمامه(٢)، وهو ما سيتكرر بعد ذلك مع الموحدين الذين نظروا إلي المرابطين باعتبارهم كفاراً، يتعين علي كل من يؤمن بالله واليوم الآخر جهادهم(٣).

---

(١) أبي الوليد ابن رشد: مسائل أبي الوليد بن رشد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، ط ٢، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣م، مج٢، ص١٢٥٢–١٢٥٣؛ نفسه، فتاوي بن رشد، ج٣، ص١٤٠٦–١٤٠٧.

(٢) ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب، ص١٢٨–١٢٩.

(٣) ابن تومرت: أعز ما يطلب، تحقيق وتقديم عمار الطالبى، الجزائر، ١٩٨٥م، ص٢٦٠؛ عز الدين أحمد موسي: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط١، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٣م، ص١١٦.

فقد حمل المهدي بن تومرت عقيدته الأشعرية والتعصب المذهبي من المشرق إلي المغرب، ومن ثم تحامل الموحدون علي المرابطين، وكان الفكر السياسى التومرتي مبنياً علي تشريع العنف تجاههم، ومحاولة تسويغ ذلك بأدلة شرعية مزعومة؛ لأنهم من وجهة نظره "بغوا علي الناس في أديانهم وأنفسهم وأموالهم"(١)، فكانت حملة ابن تومرت علي المرابطين من أعنف الحملات السياسية في التاريخ الإسلامي، فقد نعتهم بالضلال والبغي والطغيان واتبّاع الشيطان، وهي الصورة التى يريد أن يرسخها ابن تومرت عن المرابطين، يظهر ذلك واضحاً في رسالته إليهم والتى يقول فيها: "إلي القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية اللمتونية(٢)"؛ رغبة منه في تشويه صورة المرابطين لدي الناس ونزع شرعيتهم؛ إذ كان الصراع الدعائي علي أشده بين الطرفين.

كما كان موقفه من المجتمع المرابطى واضحاً تماماً، فقد اعتبر أهله مجسمين، وسوي بين قتال "أهل التجسيم الملثمين، والبرابر المفسدين"(٣)، بل ذهب ابن تومرت إلي الحسم في مآل هؤلاء المرابطين قائلاً: "فمن قتل من المجسمين والمفسدين فهو في النار"، في حين يحث أتباعه من الموحدين ويحفزهم علي جهاد المرابطين(٤)، ويبشرهم بأن "من قتل من الموحدين المجاهدين فهو شهيد"(٥)؛ إذ لم يكن أمام المهدي بن تومرت – وهو يقود حرباً فعلية ودعائية لتشويه سمعة المرابطين – بد من إصباغ صفة الشرعية علي حروبه ضدهم، عبر إباحة دمائهم، فقد "أباح لهم (الموحدين) جهادهم (المرابطين)"(٦). وتحيلنا هذا المواقف لفهم الأسباب التى تجعل المسلمين يُنبشون قبور بعضهم البعض في لحظات الخلاف في الرأى والتوجه السياسي والمذهبى، ويعتبرون من خالفهم كفاراً مشركين.

---

(١) المصدر السابق، ص٢٦٣ – ٢٦٤.

(٢) مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ص١١١.

(٣) ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص٢٦٢.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٧٣، ١٧٥.

(٥) ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص٢٦٤.

(٦) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٨١.

سبقت الإشارة إلي المسوغ الذي اعتمدته القوي السياسية، عندما اعتبرت أعداءها كفاراً، فأعطت بذلك لنفسها الحق في النظر في أمرهم، وبالتالي تقرر المصير الذي أعدته لهم، سواء بقتل الأحياء أم بنبش قبور من توفي منهم، ويقدم دخول الموحدين مدينة مراكش سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م صورة عما آل إليه أمر المرابطين وأتباعهم، فقد "باد أمر أمراء اللثام وأبيحت مراكش لقتل من وجد فيها من اللمتونيين ثلاثة أيام .."[١]، وزيادة في الانتقام والتشفي أمر عبد المؤمن "بقطع رؤوس القتلى منهم .. مما يقصر عن شرحه اللسان، ولا يأتي علي وصفه مبين البيان .. وأمر المدينة في كل يوم يزيد ضعفاً وأحوالها ترق"[٢]. ويبدو أن شناعة هذه الأفعال وهولها دفعت مؤرخي الدولة الموحدية إلي محاولة التخفيف من واقعها المأساوي.

وإذا كانت هذه الصورة تبدو قاتمة، فإن مصير الإنسان وسطها سواء كان حياً أَمْ ميتاً يبدو مأساوياً، ففي محاولة للبحث عن نموذج معبر من العصر الموحدي عن محاولة نبش قبور أمراء المرابطين، وعدم تورع الموحدين عن التعامل معهم بمنطق الكفار المارقين عن الدين، الذين يجوز نبش قبورهم، فإننا نصادف ما قام به عبد المؤمن بن علي[٣] بعد دخوله مدينة مراكش من طلبه قبر أمير المسلمين علي بن يوسف، وبحثه عنه أشد البحث "فأخفاه الله وستره بعد وفاته كما ستره في أيام حياته؛ وتلك عادة الله الحُسنى مع الصالحين المصلحين"[٤]، مما يوحى أنه كان يرغب في نبش قبره والتمثيل بجثته، إذ كانت حملة تكفير الموحدين للمرابطين علي أشدها ولم تخمد نيرانها بعد.

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٨؛ البيذق: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١م، ص٦٦؛ مجهول: الحلل الموشية، ص١٤٤.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٨.

(٣) عبد المؤمن بن علي: خليفة ابن تومرت في إمامة الموحدون، ولد سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٥م، أصله من قبيلة كومية بنواحي تلمسان علي ساحل البحر المتوسط، يرفع الموحدين نسبه إلي قيس عيلان، سافر في شبابه للحج وطلب العلم، فصادفه ابن تومرت وصحبه معه، فكان من أقرب الأشخاص إلي ابن تومرت، فضلا عن كونه تلميذه النجيب، وقد بويع بالخلافة بعد وفاة ابن تومرت سنة ٥٢٦هـ/١١٣٠م، وتلقب بأمير المؤمنين، وتوفى بمدينة رباط الفتح سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، فحمل إلي تينملل ليدفن بجوار شيخه المهدي بن تومرت. البيذق: أخبار المهدي، ص٣٤، هامش١؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٨٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٢٠١؛ الذهبي: أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٣٦٦.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٠٣.

ويبدو أن الأمير المرابطي علي بن يوسف قد استشعر المصير المأساوي الذي يتربص به بعد وفاته، ويحس بما تخبئه له الأيام ولدولته، حيث يرجع سبب عدم عثور "عبد المؤمن بن علي" على قبر علي بن يوسف إلي ما ذكره عباس بن إبراهيم المراكشي صاحب كتاب "الإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام"، من أن علي بن يوسف قبل وفاته في رجب ٥٣٧هـ/١١٤٣م، كان قد "أوصي أن يدفن بين قبور المسلمين، ولم يشهر موته إلا بعد ثلاثة أشهر من وفاته"(١)، وفي رواية أخري أوردها ابن عذارى يقول فيها "ولما اشتد ألم علي بن يوسف بن تاشفين وزادت علته عهد أن يدفن مع قبور عامة المسلمين، فدفن بها في جملتهم"(٢).

ولم تكن مساجد المرابطين هي الأخرى بمنأى عن مثل هذه الأفعال الشنيعة، فلم تسلم من عبث الموحدين عقب دخولهم العاصمة المرابطية مراكش، فقد عُرف عن عبد المؤمن بن علي عداؤه الشديد للمرابطين، ولهذا استهدف مساجدهم بالهدم والإزالة، وبنى مكانها مساجد أخري تحمل اسمه(٣)، ومنها مساجد مراكش التى "بقيت لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج، ويأبي الموحدون دخولها؛ لأن المهدي كان يقول حتى تطهروها فسئل الفقهاء عن ذلك، فقالوا لهم: تبنون مساجد أنتم وتجددون أخري ، ففعلوا ذلك"(٤)؛ لأنها في رأيهم منحرفة عن القبلة، ويقول البيذق في هذا الصدد "امتنع الموحدون أن يسكنوها .. لتشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة التى لا عوج فيها ولا تحريف .. فهدمت جوامعها لأجل تشريقها وتحريفها عن القبلة وأمالتها إلي المشرق" (٥) .

(١) العباس بن إبراهيم السملالى المراكشى: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣م، ج٩، ص٤٧؛ مجهول: الحلل الموشية، ص١٢٠.

(٢) البيان المغرب، ج٤، ص١٠١.

(٣) ابن المؤقت: السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، طبع بمطبعة مصطفي البانى الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٤١هـ، ص٧.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٩– ٣٠؛ للمزيد أنظر ابن الخطيب: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تصحيح السيد البشير الفورتي، طبعة تونس، ١٣٢٩هـ، ص١٠٨.

(٥) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت، ص٦٦.

ومن هذه المساجد التى نالتها أيدي عبد المؤمن الموحدي بالهدم مسجد علي بن يوسف بمدينة مراكش "هدمه وأعاد بناءه لا لشيء إلا لمجرد القضاء علي اسم علي بن يوسف ويجعل اسمه مكانه، فذهب عمله سدى؛ لأنه لا يجري علي ألسنة الناس إلي الآن إلا الاسم القديم جامع علي بن يوسف"(١). محاولاً بذلك طمس أي أثر يرمز إلي مجد المرابطين.

وفي الأندلس وخلال عصر الموحدين، وانطلاقاً من المسوغ ذاته، تعرض بعض القضاة الذين خاضوا في الصراعات السياسية علي عهد الموحدين لنبش قبورهم، منهم قاضي

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص١٢٧. يري البيذق أن الموحدين لم يهدموا مسجد علي بن يوسف بالكامل، بل هدموا بعض أجزاء منه. (أخبار المهدي بن تومرت، ص٦٦). وفي رواية أخري ظل مغلقاً ومعطلاً لا تقام فيه أي شعائر دينية، واستعيض عنه ببناء جامع آخر يقيمون فيه شعائرهم. الإدريسى: صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق دوزي ودي غوية، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل، ١٨٦٦م، ص٦٨؛ محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، مج١، ص٦١.

الجماعة بقرطبة أبو جعفر حمدين[١] بن محمد بن علي بن حمدين التغلبي[٢]، الذي نبش الموحدون قبره هو وأفراد أسرته بعد استيلائهم علي مدينة مالقة سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[٣].

وكان ابن حمدين هذا قد تزعم ثورة أهل قرطبة علي المرابطين في الأندلس سنة ٥٣٤هـ/١١٢١م[٤]، تلك الثورة التى كادت تقضى علي ما بقي من الأندلس لولا تدارك الموحدين إياه، حيث ثار عامة قرطبة بسبب ضعف قاضيها ابن رشد[٥]، فاضطر أبو جعفر بن حمدين للخروج للناس لتسكين ثائرتهم، بما له من حظوة لدى المرابطين وعامة أهل قرطبة، وانتهي الأمر باستعفاء ابن رشد عن القضاء، وتعطيل الأحكام بها لمدة تزيد علي العام تأديباً لأهل قرطبة، ثم ترك لهم بعد ذلك أمير قرطبة أبو عمر اللمتونى حرية اختيار

(١) ابن حمدين: هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي، ولد قبل سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م بقرطبة، التى تولي قضاء الجماعة بها في شعبان سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م علي أثر مقتل قاضيها أبي عبد الله بن الحاج، ثم عزل ابن حمدين عن قضاء قرطبة سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، ثم أعيد مرة أخري سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م، وسرعان ما تطورت الأمور سريعاً وثار أهل قرطبة علي الحكم المرابطي، فصارت إليه رئاسة قرطبة، ولقب نفسه بأمير المسلمين المنصور بالله سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، ودعى له علي منبر قرطبة ومعظم منابر الأندلس. ابن القطان: نظم الجمان، ص٧٨؛ ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، ج١، ص٢٣٥؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج٣، س٥، ص٢١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٢٤٣– ٢٤٤؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٣٥.

(٢) بنو حمدين: ينتسبون إلي بنى تغلب، وهي أسرة عربية عريقة عمل أغلب أفرادها بقضاء الجماعة بقرطبة، كان لكبيرهم أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين – قاضي الجماعة بقرطبة علي عهد المرابطين ت سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م – ابنان أحدهما أبو القاسم أحمد، وكان قاضياً للجماعة بقرطبة مرتين، وتوفي سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م، وله من الأبناء ابناً واحداً هو أبو عبد الله، تولي القضاء بعد وفاة أبيه أي بين سنة ٥٢١– ٥٢٩هـ/١١٢٧–١١٣٤م. (ابن بسام الشنترينى: الذخيرة، ق١، مج١، ١٩٩٧م، ص٨٣٩؛ القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج٨، تحقيق سعيد أحمد أعراب، ص١٩٣؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٣٥). والثاني هو أبو جعفر حمدين تولي قضاء قرطبة ٥٢٩هـ/١١٣٤م، ثم صرف عن القضاء سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، ثم أعيد وبقي حتى انهيار دولة المرابطين في الأندلس، وكانت وفاته سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م. ابن القطان: نظم الجمان، ص٧٨؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج٣، س٥، ص٢١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٢٤٤.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ضبط وشرح وتعليق مريم قاسم طويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ص١٣٦.

(٤) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص ٥٧؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج١، س١، ص٢٨٦.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٢.

قاض لهم، فأجمعوا علي اختيار ابن حمدين ليتولى منصب قاضى الجماعة بقرطبة للمرة الثانية في سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م، واستمر في منصبه حتى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م[١].

كانت أحوال المرابطين – آنذاك – قد تحولت من سيِّئ إلي أسوأ بسبب الهزائم التى توالت عليهم علي أيدى الموحدين علي عهد الأمير المرابطي تاشفين بن علي، فاستغل أهل الأندلس هذه الفرصة وثاروا في مدنهم علي المرابطين، وامتدت نار الثورة علي المرابطين ووصل لهيبها إلي قرطبة، فثار العامة ضد الوالى المرابطي أبي عمر اللمتونى وأعلنوا خلعه وترك دعوة المرابطين، واتفقوا علي مبايعة القاضي ابن حمدين بالرياسة[٢]، التى يسعى إليها منذ صغره، يؤكد هذا ما ذكره ابن الخطيب عندما قال "وكان شهماً، يجيش في صدره الأمر الذي برز فيه"[٣]، ويدعم ما ذهبنا إليه ما ذكره النباهى[٤] نقلا عن تاريخ ابن عسكر من أنه كان يحدث الناس في صغره بما سيؤول إليه أمره في كبره .

وعلي أية حال، بدأت ثورة القاضى أبي جعفر بن حمدين بقرطبة سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، وهى السنة التى سماها ابن الأبار بالقارضة، فيها "أخذت دولة الملثمين في الانتقاض والانقراض"[٥]، واتسع علي المرابطين فيها "خرق لم يرقعوه، وهجم عليهم حادث طالما توقعوه"[٦]، وأعلن ابن حمدين نفسه أميراً علي المدينة، حيث بايعة الناس بالإمارة في المسجد الجامع بقرطبة في٥ رمضان من نفس السنة، وتسمى بالقاضي الخليفة[٧].

ويبدو أن أهل قرطبة لم يألفوا قط حياة الاستقرار؛ إذ إن بعضهم كان يؤيد ابن حمدين ويرغب في رئاسته، والبعض ما زال علي ولائه للمرابطين، في حين كان هناك فريق آخر له

(١) ابن الآبار القضاعي: التكملة لكتاب الصلة، ج٢، ص١٣؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج٤، س٦، ص١٦٦ – ١٦٧؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٣.

(٢) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج١، ص٢٣٥.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٢– ٢٥٣.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٣٦.

(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص٢٥٠.

(٦) نفسه، ج٢، ص١٩٩.

(٧) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص٢١١– ٢١٢، ٢١٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٧١، ٢٦٢؛ ابن ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥١– ٢٥٣؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص٧٦.

رغبة في دعوة ابن قسى وهم سكان الربض الشرقي لقرطبة[١]، وهناك فريق رابع كان يرى استدعاء سيف الدولة بن هود[٢]، إذ لم تكن كافة الأطراف بقرطبة راضية عن حكم ابن حمدين، فلم يكد يمضى اثنا عشر يوماً علي قيام ابن حمدين بثورته حتى قامت ثورة أخري بقرطبة حمل لواءها أنصار سيف الدولة أحمد بن عبد الملك بن هود، الذي قدم إلي قرطبة في قوة من القشتاليين، حيث نودي به أميراً علي قرطبة باسم المستنصر بالله، ورغم ذلك فلم ينعم بهذا المنصب كثيراً؛ إذ سرعان ما ضاق أهل قرطبة ذراعاً باستبداد وزيره، فانقلبوا عليه بعد ثمانية أيام فقط من توليه الإمارة[٣].

أما ابن حمدين، فقد عاد إلي قرطبة في١٠ ذي الحجة سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م ونودي به للمرة الثانية أميراً علي البلاد "فاستقام له الأمر فيها، ودون الدواوين، وجند الأجناد، ورسم الخطط"[٤]. ولم يكد يمضى أحد عشر شهراً علي توليه الإمارة حتى تبرم منه أهل قرطبة، واتصلوا بيحيى بن غانية[٥] قائد المرابطين في إشبيلية وطلبوا منه أن يعمل علي تخليصهم من حكم ابن حمدين، فزحف ابن غانية علي قرطبة في جمادي الآخرة سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م علي رأس فرقة من النصارى، ونجح في إيقاع الهزيمة بجيش ابن حمدين الذي فر إلي بطليوس، ثم غادرها إلي حصن (أندوجر) الواقع شرقي قرطبة وتحصن به، ولما كر عليه ابن

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص٢٠٦.

(٢) هو أحمد بن محمد بن سليمان بن هود، من بقايا حكام دول الطوائف في سرقسطة، عرفوا بموالاتهم للنصارى وتبعيتهم لهم، لعب سيف الدولة بن هود دوراً بارزاً في ثورة القضاة ضد المرابطين، وقتل سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م. ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص٢٠٦؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص١٧٢– ١٧٦.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص٢١٢؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٣؛ يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، تقديم سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م، ج١، ص٢٢٠.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٣.

(٥) يحيى بن غانية: من أبرز ولاة وقواد المرابطين في الأندلس، كان أميراً نابهاً، وجندياً وافر الجرأة والشجاعة، والخبرة والخبرة بأساليب الحروب، وحاكما وافر الكفاية والمقدرة، تمركز في أواخر الحكم المرابطي في الأندلس في مدينة غرناطة مع ما تبقي من قوات المرابطين، وتوفي بها سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م. ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤، ص٣٠٠– ٣٠٣.

غانية، لجأ ابن حمدين إلي تلك الوسيلة الذميمة التى كانت عماد ملوك الطوائف في محاربة بعضهم البعض، وهي الاستنصار بعاهل قشتالة القيصر ألفونسوا ريموندیس؛ حيث أطمع ابن حمدين القيصر في قرطبة، فاستجاب لدعوته وتحرك لنصرته، فسار هؤلاء النصارى ومعهم حليفهم ابن حمدين، فدخلوا قرطبة في العاشر من ذي الحجة سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م(١).

وعندئذ جاءت الأخبار بأن الموحدين قد جازوا البحر إلي الأندلس، وأن دعوتهم ظهرت بأشبيلية، فرأى القيصر أنه من الفطنة مهادنة ابن غانية، وتركه بقرطبة سداً بينه وبين بلاده، وعلي هذا النحو، استقر ابن غانية بقرطبة، واستمر علي تهادنه مع القشتاليين(٢). أما ابن حمدين فقد غادر قرطبة مع النصارى الأسبان، ثم عبر البحر إلي المغرب، وسار إلي مقابلة الخليفة عبد المؤمن بن علي أسوة بمن سار إلي لقائه من زعماء الثورة في الأندلس، فلقيه تحت أسوار مدينة مراكش – حاضرة المرابطين – وهو محاصر لها سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، فأكرمه الخليفة عبد المؤمن وأحسن استقباله ونزله ووعده بمساعدته، لكن علي ما يبدو بقيت مجرد وعود، فاستعجل الرجوع إلي الأندلس فنزل بمالقة وحاول أن يسترد سلطانه بقرطبة مرة أخري، إلا أنه أخفق في مسعاه فارتد ثانية إلي مالقة، وكان من أسباب لجوئه إلي مالقة وجود حليفه السابق القاضى أبي الحكم بن حسون بها(٣)، فاستقر بها حتى توفي(٤).

---

(١) عاث القشتاليون في قرطبة عند دخولهم لها، واستباحوا مسجدها الجامع، ومزقوا ما به من مصاحف، وأحرقوا الأسواق، وظل ابن غانية صامدا يدفع النصارى الأسبان عن قرطبة بمنتهى الشدة والبسالة. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٣؛ نفسه: الإحاطة، ج٤، ص٣٠٠–٣٠١.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٤.

(٣) هو القاضى أبو الحكم بن حسون، ولى القضاء بمالقة بعد وفاة قاضيها أبو محمد الوحيدى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م، ثم سرعان ما دعا لنفسه في مالقة وقام بالثورة ضد الموحدين، ولما فشلت ثورته وثار الناس ضده أحرق كتبه وذخيرته، ثم شرب سماً وعندما لم يقتله السم، طعن نفسه بالرمح ومات سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، وقد صلبت جثته هو الآخر بعد استيلاء الموحدين علي مالقة، وحملت رأسه إلي مراكش. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٣٠، ٢٥٥.

(٤) ما ذكره البيذق من أن مخلوف بن يلولى ويحيا بن يومور قتلاه لم يذكره أحد من المؤرخين سواه، إلا أن يكون المراد بالقتل اخراجه من قبره وصلبه. أخبار المهدي بن تومرت ، ص٨٦.

واختلفت المصادر في تاريخ وفاته، فذكر النباهى[١] وابن الخطيب[٢] أنه توفي في ١٩ رجب سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م، بمالقة ودفن بمسجدها الجامع، وذكر ابن سعيد[٣] أنه توفي سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م، أما باقى المصادر فأجمعت أنه توفي سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[٤].

ولما استولي الموحدون علي مدينة مالقة بعد ذلك بعشرين شهراً أي في أوائل سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، نبشوا قبره، واستخرجوا جثمانه وصلبوه، وهو – وفقاً للرواية – علي حاله لم يتغير[٥]، وحسب رواية أبي الحسن النباهى أُخرج من قبره بعد وفاته "وصلب في اثني عشر رجلاً من أصحابه"[٦]. وهناك من المؤرخين من يزعم أن المنجمين في زمانه حكموا عليه عند مولده بأنه بأنه سوف يُصلب، وكان الحديث بذلك فاشياً بين أعدائه في قرطبة، فصدقته الأيام ولكن بعد وفاته[٧].

ولعل ما يفسر لنا سبب قيام الموحدين بعد استيلائهم علي مالقة سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، بنبش قبر ابن حمدين وإخراج جثته وصلبها، ما ذكره ابن الخطيب من أن أبا جعفر بن حمدين قد حرض ابن حسون علي خلع دعوة الموحدين في مالقة، وبناء علي ذلك، دعا ابن حسون لنفسه واتخذ ألقاب الإمارة[٨]. وأغلب الظن أن الاثنى عشر رجلاً الذين

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٣٦.

(٢) أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٤.

(٣) رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق وتعليق محمد رضوان الداية، ط١، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م، ص١١٦.

(٤) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج١، ص٢٣٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٢٤٤. ويبدو أن هذا التاريخ هو الأقرب إلي الصواب؛ إذ إن جثته صلبت في هذه السنة وكانت علي حالها، ولم تتغير لقرب المدة بين وفاته وصلب جثته بعد إخراجها من القبر.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص٢٥٤. نعت عبد الملك المراكشي ابن حمدين بالمتأمر، وأشار إلي أنه توفي بمالقة، وأنه تعرض للصلب بعد دخول الموحدين لها. الذيل والتكملة، مج١، س١، ص٦٣٣.

(٦) تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا، ص١٣٦.

(٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٤؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٣٦.

(٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٣١.

الذين نبشت قبورهم وصُلبوا مع أبي جعفر بن حمدين كانوا من أسرته؛ إذ إنه مات ولم يكن له عقب، وبقى عقب أخيه أبي القاسم أحمد بن حمدين(١).

وفي تقديري أن نبش الموحدين لقبر أبي جعفر بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة عند دخولهم مدينة مالقة لم يكن سببه الوحيد هو الخلاف السياسي والاستنصار بالنصارى الأسبان، إذ يبدو أن للموضوع إرهاصات مذهبية وفلسفية قديمة بين الموحدين وأسرة بنى حمدين القرطبية، كان لها دورها في نبش قبر أبى جعفر بن حمدين وصلبه علي أيدي الموحدين هو وأفراد أسرته، هذه الإرهاصات تتمثل في أن أبا جعفر بن حمدين هذا هو ابن القاضي أبى عبد الله محمد بن علي بن حمدين التغلبي(٢) (٤٣٩-٥٠٨هـ/١٠٤٧-١١١٤م) ١١١٤م) قاضي الجماعة بقرطبة الذي أصدر فتوى إحراق كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي بعد إجماع الفقهاء علي عهد الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، وهي القضية التى أثارت نقمة كبرى علي المرابطين من قبل خصومهم الألداء الموحدين، واتخذوها ذريعة للطعن في عقيدة المرابطين واتهامهم بالمروق عن الدين، وكان أول مروج لها هو ابن تومرت تلميذ أبى حامد الغزالي(٣)، الذي أشاع بين أنصاره أنه اتصل بالإمام الغزالي أثناء رحلته إلي المشرق، فأخبره بإحراق المرابطين لكتابه "إحياء علوم الدين"، فغضب الغزالى ودعا عليهم بتقويض دولتهم، فاستغل ابن تومرت الفرصة وطلب منه أن يدعو الله ليجعل ذلك علي يديه، فدعا الغزالي، وأمن طلبته، وبذلك تم لابن تومرت – حسب زعمه – ما تم له من أمر

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٣٦.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي، قاضي الجماعة بقرطبة، ولد سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م، وتولي قضاء قرطبة بعد وفاة والده سنة ٤٩٠هـ، وكانت وفاته سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م، وكان ابنه أبو جعفر حمدين الذي تولي قضاء قرطبة سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م، قد تسلم زمامها ودُعي له علي منابرها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م. أبو الوليد بن رشد: مسائل أبي الوليد، مج١، ص٢٦٣؛ القاضي عياض: الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م، ص٤٦؛ ابن بشكوال: الصلة، تحقيق إبراهيم الأبيارى، ط١، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩م، ترجمة ١٢٦٢، ص٨٣١؛ الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، ١٩٧٦م، ص١١٣؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص٧٤.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٧٢.

القضاء علي المرابطين، وعد أنصار الغزالى اندحار المرابطين وهم في أوج عظمتهم من بركاته[١].

كان من الطبيعى أن تلقى كتب أبي حامد الغزالي المعارضة في الغرب الإسلامي الذي لم يكن علي مذهب الغزالي، ولذلك عندما وصل كتابه "إحياء علوم الدين" إلي الأندلس اطلع عليه أبو عبد الله بن حمدين قاضي قضاة قرطبة، فرأى أنه مخالف للعقيدة الإسلامية؛ لاحتوائه علي كثير من المسائل الكلامية، وكراهية المالكية لهذه العلوم، ومن ثم جمع فقهاء قرطبة للتداول في شأن الكتاب واتفقوا علي رأيه وأصدروا فتوى بوجوب حرقه[٢]، وطالبوا ولى الأمر بمصادرة كتبه وإحراقها، فما كان من الأمير المرابطي علي بن يوسف إلا أن أصدر أوامره بتنفيذ ما أجمعوا عليه سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م[٣]، غير أنه بجانب هذا السبب الظاهر

(١) ابن القطان: نظم الجمان، ص٧٢– ٧٣؛ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، ط٢، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦م، ص٤.

(٢) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج٣، س٥، ص٢٥٩.

لا ينبغي أن ينظر إلي قضية إحراق كتاب الإحياء للغزالى علي أساس أنها خطأ ارتكب في عهد المرابطين يتحمل مسؤوليته ابن حمدين، وإنما هي حادثة ليست فيها أي جريرة، ومن الظلم أن يحمل مسؤوليتها ابن حمدين وحده، ولا علاقة لها بتعصب الفقهاء ولا بسلطتهم القوية علي الأمير المرابطي؛ لأننا نعلم أن أمير المسلمين علي بن يوسف كان لا يخضع للفقهاء إلا إذا تيقن من مطابقة آرائهم للشريعة الإسلامية، وإلا فبماذا نعلل رفضه قتل ابن تومرت أو حتى سجنه رغم أن الفقهاء نصحوه بذلك. كما أن الأمير المرابطي علي بن يوسف كان متفقهاً في علوم الدين، فلم يكن جاهلاً بما في الإحياء من خطورة علي العقيدة، ومما لا شك فيه أن علي بن يوسف وفقهاء دولته كانوا متيقنين من أنهم علي صواب عندما أمروا بحرق الكتاب، ولم يخالفوا تعاليم الشريعة، وإنما فعلوا ذلك عن اقتناع. وليس أدل علي ذلك من وصف ابن خاقان له بأنه "حامى حمي الدين، وعاضده، وقاطع ضرر المعتدين، وحاصده". قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق وتعليق حسين يوسف خربوش، ط١، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الأردن، ١٩٨٩م، ج١،٢، ص٦١٠؛ للمزيد انظر المراكشي: المعجب، ص١٨٥– ١٨٦؛ ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب، ص١٧٦. فقد كانت نية ابن حمدين سليمة وعقيدته صحيحة ولم يفت بحرقة إلا بدافع الغيرة علي الدين، وقد شهد بهذا ابن القطان نفسه داعية الموحدين الذي شنع علي المرابطين قضية الإحراق، حيث أشار إلي أن ابن حمدين "كان جميل الطريقة ساعيا في كل خير .. ورعاً ديناً حذرا من العواقب". (نظم الجمان، ص٧٤).

(٣) يصف ابن القطان واقعة الإحراق فيقول "في أول عام ٥٠٣هـ عزم علي بن يوسف عن إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائها علي إحراق كتاب أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالي المسمي

للإحراق كانت هناك أسباب أخرى خفية تتعلق بهؤلاء الفقهاء الذين طالبوا بإحراق كتب الغزالى، ومن ذلك ما وجدوه في كتاب الإحياء من هجوم علي علماء الفروع الذين يتخذون من العلم والدين مطية لتحقيق أطماع دنيوية(١).

هذا، ولم يخل عهد عبد المؤمن بن علي من حوادث التسلط علي قبور الثوار والمناوئين للحكم الموحدي بالنبش والتخريب، ففي سطيف قام عبد المؤمن بدرس قبر سطيح بخيله ثأرا من خيانته، وذلك حسب ما أورد البيذق مؤرخ البلاط الموحدي، الذي يقول: "سار الخليفة إلي سطيف وفيه قبر سطيح فوق الطريق في ربوة، وقرب منه الخليفة وقال للموحدين ادفعوا خيلكم فدفع الخليفة جواده ودفع الموحدون معه حتى وصل قبر سطيح وحك عليه جواده الذي ركب وكان جوادا أبلق، ودار عليه الموحدون وانضم الناس إليه، فقال لهم الخليفة رضي الله عنه أتعرفون ما قال صاحب هذا القبر؟ قالوا له أنت العارف بذلك، فقال لهم الخليفة، قال: أزيلوني عن هذا القبر لئلا تدرسني خيل عبد المؤمن بن علي الكومي القيسي، فكان كذلك بعون الله وتوفيقه"(٢).

الإحياء، فأحرق في رحبة مسجدها علي الباب الغربي علي هيئته بجلوده بعد إشباعه زيتاً، وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس، ونفذت كتبه إلي جميع بلاده آمراً باحراقه حيثما وجد". نظم القطان، ص٧٠– ٧١؛ عبد الواحد المراكشى: المعجب، ص١٧٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص٥٩.

ويستفاد من خبر أورده عبد الواحد المراكشي أن الفتيا صدرت بإحراق كل كتب الغزالي وليس الإحياء فقط؛ إذ يقول "ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي –رحمه الله – المغرب أمر أمير المسلمين (علي بن يوسف) بإحراقها= =وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلي من وجد عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك". المعجب، ص١٧٣. وسار خلفه ابنه تاشفين علي سنته، فكان من جملة ما أصدره في بيان توليته الأمر بإحراق كتب الغزالي ".. ومتى عثرتم علي كتاب بدعة أو صاحب بدعة وخاصة – وفقكم الله – كتب أبي حامد الغزالي فليتتبع أثرها وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ويبحث عليها، وتغليط الإيمان علي من يتهم بكتمانها". حسين مؤنس: نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلي الموحدين، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، ٢٠٠٠م، ص٢٠.

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ع٣، ق١، ص ٧٩؛ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٤٥٢.

(٢) البيذق: أخبار المهدي، ص٧٤.

ونتوفر علي إشارة تخص علي بن غانية الثائر علي الحكم الموحدي، والذي هلك في بعض حروبه مع أهل نفزاوة سنة ٥٨٤هـ/١١٨٧م ببلاد الجريد، فدفن هناك، فكان العداء السياسى سبباً في أن عُفِي علي قبره، فحمل أتباعه أشلاءه إلي ميورقة فدفن بها[١]. ونتوفر علي إشارة أخري تعود للفترة الموحدية أوردها التجاني[٢] في حوادث سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م يشير فيها إلي نقل نيف وستين رأساً من قبور مدينة قابس إلي مكان آخر بقصد البناء في موضع دفنهم.

نخلص مما سبق ذكره، أن الفترة الموحدية غنية أكثر من سابقتها فيما يتعلق بهذا الأسلوب من الانتقام، ويرجع ذلك إلي طول فترة الحكم الموحدي مقارنة مع نظيره المرابطي من جهة، وإلي المذهب الموحدي في صيغته التومرتية والذي حث علي تصفية غير المؤمنين بالعقيدة المهدوية من جهة أخري، واعتبار الخصوم والثوار والمناوئين ومن ينحو منحاهم كفاراً يجب إزهاق أرواحهم، وملاحقة قبورهم والتسلط عليها بالنبش والتخريب إمعانا في التشفي والانتقام.

وفي المغرب الأقصي، وخلال عصر بنى مرين، الذين كانت لديهم رغبة أكيدة في الإطاحة بدولة الموحدين[٣] بعد إخفاق سياستهم وضعف قبضتهم عن الإمساك بزمام الأمور في بلاد المغرب، ومن ثم ظهروا علي مسرح الأحداث ببلاد المغرب الأقصى وتوغلوا في مناطقه الخصبة يشنون الغارات عليها، مما أثار شكوى السكان منهم[٤]، وأصبح المد المرينى

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٩٣.

(٢) رحلة التجاني، ص١٠٤.

(٣) تحالف بنى مرين في بداية أمرهم مع الموحدين الذين أسندوا إليهم حكم البلاد التى بحوزتهم، ولما بدأ الضعف يسري في جسد الدولة الموحدية انقلبوا عليها، وشنوا الغارات علي أطرافها، إلي أن تمكنوا من القضاء عليها. ابن خلدون: العبر، ج٧، ص١٨٢؛ يحيي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، (د.ت)، ج١، ص١٢٠-١٢١.

(٤) من خلال الإغارة علي المدن والقرى وسلب أموال الناس وإشاعة الفوضى، مما دفع الخليفة الموحدي المستنصر إلي تجهيز جيشا لقتالهم عند وادي نكور سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م، إلا أن النصر كان حليف المرينيون الذين انتصروا انتصاراً باهراً، ومزق الجيش الموحدي شر ممزق؛ حيث بالغ المرينيون في تجريدهم من ملابسهم، وعند عودة من تبقي منهم إلي مراكش وهم عرايا كانوا يستترون بأوراق الشجر. ابن عذاري: البيان المغرب، قسم

يثير مخاوف الموحدين، الذين لم تنجح محاولاتهم لإجهاض هذا التوسع[١]، الذي كلل بالنجاح عندما تمكن المرينيون من دخول عاصمة الموحدين مراكش سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م[٢]. وبذلك انطوت آخر صفحات الموحدين من تاريخ المغرب، وحل محلهم بنو مرين.

وانطلاقاً من المسوغ ذاته، دفع العداء السياسى المرينيين إلي نبش أحقادهم المدفونة ضد الموحدين والتسلط علي قبورهم بالنبش والتخريب، وصلب وحرق ما تبقي من رفاتهم إمعانا في التشفى والانتقام منهم، وقد تم هذا علي أيدى عمال بنى مرين، الذين نبشوا "قبور خلفاء الموحدين، وأخرجوا عبد المؤمن بن علي وابنه يعقوب المنصور من قبريهما. وقطعت رأسهما، وضربت أعناق كل من كان بجبل تينمل، وصلبوا بمراكش وأخذت أموالهم"[٣].

وفي رواية أخري "عاثت عساكر بنى مرين في جبل تينملل واكتسحوا أمواله، ونبشوا قبور خلفاء بني عبد المؤمن واستخرجوا أشلاءهم، وكان فيها شلو يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور، فقطعت رؤوسهم وتولى كسر ذلك أبو علي بن أحمد المليانى"[٤].

وقد اشتهر أبو علي بن أحمد المليانى[١] عامل المرينيين علي مدينة أغمات بنبش قبور الخلفاء الموحدين انتقاماً وتشفياً منهم، فما "كان منه إلا العبث بأشلاء الموحدين ونبش

الموحدين، ص٢٦٦؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٢٨٤؛ نفسه، الذخيرة، ص٢٨؛ ابن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م، ص١١١؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص١٦٩.

(١) كان الخليفة الموحدي المستنصر خلال المواجهات مع بنى مرين يري ضرورة استئصال شأفتهم وإفنائهم، بأن يبعث إليهم بجنوده "فيقتل رجالهم، وينهب أموالهم، ويسبى نساءهم، وينسف آثارهم ويشرد بهم من خلفهم، ويُنذر بهم من سواهم"، وفي موضع آخر "اقتل الوالد والولد، ولا تبق منهم علي أحد". ابن أبي زرع: الذخيرة، ص٢٧.

(٢) استطاع السلطان المرينى أبو يوسف يعقوب القضاء علي الموحدين واجتثاث شجرتهم في المعركة التى شنها ضدهم عند وادى غفو، والتى انتهت بهزيمة الموحدين ومقتل أبي دبوس واستيلاء بنى مرين علي عاصمتهم مراكش وذلك في محرم سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، وبمقتل أبي دبوس وسقوط مراكش في أيدى المرينيين انتهى بذلك عصر الدولة الموحدية، لتحل محلها دولة بنى مرين في ربوع المغرب الأقصي. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٢٦١؛ نفس المؤلف، الذخيرة السنية، ص١١٧– ١١٨؛ مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص١٧١.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفي زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٦م، ج١، ق٢، ص٦٢٠.

(٤) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٣، ص٤٣.

أجداثهم"[٢]، فتسلط علي قبر أبي يعقوب المنصور بالنبش؛ حيث "أخرجه من قبره وزعم أنه المهدي وذلك في سنة ٦٧٤هـ"[٣].

ومما يدعو للاستغراب ما ذكره ابن عذارى نقلاً عن بعض المشارقة الذين أخبروه "أن قبر المنصور ملك المغرب في بلاد الشام. ولا ريب ولا اختلاف أن المنصور – رحمه الله – كان رجلاً صالحاً عالماً فاضلاً، وثبت عن قرابته وأهل بيته أن قبره بتينمل"[٤].

هذه الرواية تؤكد ما ذهبنا إليه من تعرض قبر أبي يعقوب المنصور[٥] وغيره من مقابر خلفاء الموحدين للنبش والتخريب علي يد عمال بنى مرين، ومن الوارد أن يكون قبر أبي يعقوب المنصور قد تعرض للنبش من منطق حسن النية، بهدف حمايته من تسلط المرينيين عليه، من خلال نقله إلي مكان آمن إذا سلمنا بصحة رواية المشارقة التى أوردها ابن عذاري[٦].

وعلي أية حال، تدّل وحشية المرينيين وعمالهم في التسلط علي قبور خصومهم الموحدين عن رغبة كامنة في التشفي والانتقام حتى بعد رحيل هؤلاء عن الحياة. فقد ذكر الناصرى أن والى المرينيين أبا علي بن أحمد الملياني كان يري – بارتكاب هذا الفعل الشنيع – أنه قد شفى غليله "باستخراج هؤلاء الخلائق من أرماسهم والعبث بأشلائهم"[٧]. ويبدو أن

---

(١) أبوعلي بن أحمد الملياني: من أعيان مدينة مليانة ثار علي الحفصيين بها سنة ٦٥٧هـ، فجهزوا إليه جيشا كبيراً وأخمدوا ثورته، ففر إلي المغرب الأقصى والتجأ إلي السلطان أبي يعقوب المرينى، الذي رحب به وآواه وعينه ووالياً علي مدينة أغمات أكراماً له. ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٣١؛ المقري: نفح الطيب، ج٦، ص٢٦٦–٢٦٧؛ الناصري: الاستقصا، ج٣، ص٤٣؛ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص٣١٥.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٣١.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٣٥.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٣٥.

(٥) أبو يعقوب المنصور: يُعد عصره هو العصر الذهبى للموحدين، كان كريماً مع الفقراء والضعفاء، حريصاً علي رد المظالم، كما راعى الصلحاء وأهل العلم، وأكرم الفقهاء وأجزل عليهم الأموال الكثيرة، توفي سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م، فدفن أول الأمر بمدينة مراكش، ثم نقل بعد ذلك إلي تينمل، وحزن الناس لوفاته حزنا شديداً. ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٣٤؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص٢١٧.

(٦) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٣٥؛ الزركشي: تاريخ الدولتين، ص١٧.

(٧) الناصرى: الاستقصا، ج٣، ص٤٣.

هذا الفعل المحرم شرعاً قد أثار غضب الناس؛ حيث "أنكر الناس عامة والسلطان يعقوب خاصة هذه الفعلة منه ولم يرضوها"[١].

وفي عهد السلطان أبي عنان المرينى، يكشف لنا صاحب كتاب "بيوتات فاس الكبري" عن رغبة هذا السلطان في حرق قبر الفقيه أبى بكر محمد بن العربي الإشبيلي[٢] الذي كان يلى قضاء إشبيلية علي أيام الموحدين عن كره من أهلها[٣]. ولعل سبب أقدام أبي عنان المرينى علي حرق قبر هذا الفقيه ما رماه به بعض علماء عصره بعدما وقفوا علي كلامه في كتابه "العواصم من القواصم" بحق الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ففي هذا الكتاب استباح ابن العربي قتل الحسين وأحل دمه، فثارت العامة بإشبيلية ضده عندما بلغهم هذا الكلام وطالبوا بتأديبه، فقصدوا داره، لكنه لاذا بالفرار عندما علم بما عزموا عليه، حيث جاز البحر إلي بلاد المغرب قاصدا مدينة فاس إلا أنه مرض وهو في الطريق إليها بسبب حقده علي أهل إشبيلية عندما وصله خبر ما فعلوه بداره، فتوفي ودفن بخارج باب الشريعة في ربيع الآخر سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م[٤].

---

(١) نفسه والجزء والصفحة.

(٢) ابن العربي: هو الفقيه والقاضى أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد، المعروف بابن العربى المعافري، ويرجع ابن العربي في أصله إلي أشبيليه التى ولد بها سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٦م، ولكنه ما لبث أن غادرها إلي المشرق تحدوه رغبة عارمة في استقاء العلم من مصادره في بلاد المشرق، ولم يكن عمره آنذاك يتجاوز سبعة عشر عاماً، غادر أشبيلية سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م صحبة أبيه الذي كان يشغل منصباً مرموقاً في دولة المعتمد بن عباد التى أزالها يوسف بن تاشفين أمير المرابطين. وبعد عودته إلي وطنه سرعان ما ذاع صيته كقاض وفقيه من أكبر فقهاء المالكية في الأندلس، وتوفي ابن العربي أثناء رحلته إلي مدينة فاس التى دفن بها في ربيع الآخر سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م. القاضى عياض: الغنية، ص٦٦–٦٨؛ الضبي: بغية الملتمس، ص٩٢–٩٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج٤، ص٢٩٦– ٢٩٧؛ ابن سعيد: المغرب، ج١، ص٢٥٤–٢٥٥؛ النباهي: المراقبة العليا، ص١٣٧–١٣٩؛ المقري: أزهار الرياض، ج٣، ص٦٢، ٦٣، ٨٦؛ نفسه، نفح الطيب، ج٢، ص٢٥–٤٣.

(٣) ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبري، ص٦٠.

(٤) ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص٦٠– ٦١.

أما أهل إشبيلية الناقمين عليه فلما وصلوا إلي داره، ووجدوه قد فر منها، استقروا علي هدم داره عوضاً عن جلود ضحاياهم التى أغتصبها منهم كرهاً[١]، ليس هذا فحسب، بل عقدوا العزم علي حرق كتبه ومؤلفاته؛ لأنها حسب زعمهم فاسدة، لئلا يضل المسلمون بها، فهدموا داره وأحرقوا كتبه[٢]. ولما وقف السلطان أبي عنان المرينى علي كلامه في الكتاب المذكور أراد حرق قبره، وكان ابن الخطيب حاضراً في بلاطه آنذاك رسولاً من طرف سلطان غرناطة إلي بلاط فاس[٣]، فكلمه أبو عنان فيما عزم عليه، فأشار عليه ابن الخطيب بألا يفعل ذلك؛ لأن ابن العربي كان "قد مضى إلي ما قدمت يده، فتركه حينئذ ولم يحرق قبره"[٤].

وإذا كان ابن العربي قد وجد من يشفع له لدى بلاط فاس كي لا يتم ملاحقة قبره بالحرق أو التخريب، فإن ابن الخطيب نفسه – الذي تشفع لابن العربي – لن يجد من يقف بجواره ويحنو عليه في المحنة التى تعرض لها – وهي المحنة التى سنعرض لها في الصفحات التالية – بل إن هناك من يزعم بأن ما أصاب ابن الخطيب من نبش قبره وحرق جسده، كان جزاء منعه لأبي عنان من حرق قبر ابن العربي[٥].

---

(١) المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٢٧. تصادف بعد تولي ابن العربي قضاء إشبيلية أن سقط جزء من سور مدينة إشبيلية المحاذى للبحر، وكان من عادة أهل الأندلس إذا سقط لهم سور إحدي المدن أن يكتب قاضيها إلي أميرها يعلمه بذلك، فيصرف له قيمة بنائه، ومن ثم يتولي القاضي بناء هذا الجزء من السور خشية قدوم= =النصارى الأسبان منه، وعلي غرار هذا، طلب أهل أشبيلية من ابن العربي أن يعلم الأمير بذلك، لكنه رفض أن يفعل ذلك، بل عمد إلي أخذ جلود ضحاياهم عن كره منهم، وابتاعها وبنى بثمنها الجزء المتهدم من السور. ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص٦٠.

(٢) ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص٦٠– ٦١.

(٣) عهد لابن الخطيب للقيام بسفارتين إلي بلاط فاس في عهد السلطان أبي عنان، الأولي كانت سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م عندما ورد سفيراً نيابة عن السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل إلي السلطان أبي عنان. والثانية كانت سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م عندما أرسل سفيراً عن أبي عبد الله محمد بن أبي الحجاج الملقب بالغنى بالله إلي السلطان أبي عنان للمرة الثانية، ومن المرجح أن هذه الواقعة قد حدثت في إحدى السفارتين. عبد الهادي التازي: ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدى، تطوان، ع٢، ١٩٨٧م، ص٤٧.

(٤) ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص٦١.

(٥) نفس المصدر السابق، ونفس الصفحة.

هذا ولم يخل **عصر بنى الأحمر في غرناطة (٦٣٥– ٨٩٧هـ/ ١٢٣٨– ١٤٩٢م)** هو الآخر من حوادث ملاحقة القبور والتسلط عليها سواء بالنبش أو الإحراق لأسباب سياسية ومذهبية. فقد تعرض مسلم بن سعيد التملي[١] – والذي كان متولياً لخطة الخفارة ومشرفاً علي جمع وجباية الضرائب في عهد سلطان بنى الأحمر محمد الثاني الملقب بالفقيه[٢]، "قنمت حاله، وعظُم جاهه، ورهبت سطوته"[٣]– لبطش ولي عهد السلطان[٤] به بعد وفاته سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، وملاحقته لقبره والتسلط عليه بالنبش والإحراق؛ لأن ولي العهد "كان قد أسف بأمور صانعه فيها من باب خدمة والده، فكان يتلمظ لنكبته، ولما تصير إليه الأمر، نبش قبره، وأخرج شلوه، فأحرق بالنار، إغراقاً في شهوة التشفى"[٥].

وأما عن المحنة التى تعرض لها كاتب الأندلس ومؤرخها ووزيرها **لسان الدين بن الخطيب** – ذلك الرجل الذي ارتفع شأنه فملك زمام السيف والقلم – فهي اتهامه بالزندقة[٦]

---

(١) نسبة إلي بلدة تنيملل. ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، هامش (١)، ص٣٣٠.

(٢) محمد الثاني الفقيه: هو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، ولد بغرناطة سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٤م، عُرف بالفقيه لانتحاله طلب العلم ولاهتمامه بقراءة القرآن الكريم، تولي عرش سلطنة غرناطة وهو في الثامنة والثلاثين من عمره، بعدما خبر الحكم طويلاً أيام أبيه. سار علي نفس سياسة أبيه من مصانعة الأقوياء ومداراة الأعداء، واستطاع الوقوف في وجه الفتن بفضل ما بذل من ضروب الاحتيال والدهاء والصبر والحزم. توفي في الثانى من شعبان سنة ٧٠١هـ/١٣٠٢م بعدما ملك تسعاً وعشرين سنة. ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تصحيح ونشر محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ، ص٣٧– ٣٨، ٤٠.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، ص٣٣٠.

(٤) يقصد بولى العهد هنا محمد الثالث المخلوع، ثالث ملوك بنى الأحمر، والذي تسلم زمام الحكم في غرناطة سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م، إلا أنه لم يهنأ بالملك طويلاً، إذ أصيب بمرض في عينيه، وعندئذ رأي كبار رجال الدولة أن ملكهم لم يعد يصلح لإدارة شؤون الحكم، بسبب مرض عينيه وحدة طباعه وقرروا خلعه، ففتكوا به وخلعوه، ثم أشيع بعد ذلك أنه أصيب بسكتة أماتته سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩م، في حين يري البعض أنه اغتيل تغريقاً في بركة القصر بتدبير من أخيه نصر الذي بايعه الناس علي العرش. ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٤٧، ٥٤.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، ص٣٣١.

(٦) كثيراً ما كان الاتهام بالزندقة يخفي وراءه أهدافاً سياسية وشخصية، فبعض من اتهموا بها كان يتم توجيه الاتهام إليهم بحجج وأسباب واهية. Maria Isable Firro,: Accusation of Zandaq in Al- Andalus, Veneza, Quaderni di Studi Arabi, 1986, P.251.

والإلحاد والخروج علي شريعة الإسلام من جانب خصومه، الذين نسبوا إليه في ذلك أقوالا ومقالات، مما جاء في بعض كتبه ورسائله، أولوها وفق مقاصدهم، وهى التهم التى أثيرت عند محاكمته بفاس، وأوقعت به في فخ النكبة والتصفية الجسدية، فوُبخ ونُكل وعذب علي الملأ وقتل علي يد خصومه، بل لم يسلم قبره من تسلطهم عليه بالنبش والإحراق، بسبب ما رماه به خصومه لدي سلطانه الغنى بالله سلطان غرناطة(١).

وتعود المحنة التى تعرض لها ابن الخطيب لظروف الفتنة التى عصفت بمملكة غرناطة وبسلطانها محمد الخامس الغنى بالله(٢)، الذي خُلع وأُقصى من منصبه ليحل مكانه أخوه إسماعيل، وقد عزل معه وزيره المُحنك ابن الخطيب، ومن هنا بدأت محنة الرجل ومعاناته، فقد صودرت أملاكُه عقب عزله واعتقل وكبست دوره وانتهبت، ولما بلغ خبر هذه الحوادث سلطان المغرب أبي سالم المرينى غضب لخلع السلطان وقتل حاجبه، وأرسل في الحال يطلب من إسماعيل المتغلب علي غرناطة أن يسمح لأخيه المخلوع ووزيره ابن الخطيب بالانتقال إلي المغرب، فأجابة السلطان الجديد إلي مطلبه، وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلي المغرب؛ حيث استقبلا بالترحيب، وظل الغنى بالله خلال بقائه بالمغرب يتحين الفرصة لاسترجاع عرشه المسلوب(٣).

وبالفعل تمكن السلطان المخلوع من استرداد عرشه من جديد بمساعدة المرينيين – بفضل دهاء وحنكة وزيره المُحنك ابن الخطيب – مستغلين في ذلك ثورة عارمة وقعت في حاضرة غرناطة، أدت إلي سقوط المغتصب، وعودة الغني بالله إلي الحكم، الذي ما إن استقرت له الأمور، حتى بعث برساله إلي وزيره ابن الخطيب سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م يخبره

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٤١– ٣٤٢؛ ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص٦٢ – ٦٣.

(٢) هو الغنى بالله محمد بن يوسف الأول، سلطان بنى الأحمر في غرناطة، ولي الملك مرتين، الأولي بعد وفاة أبيه سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، والثانية سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م، اختص أمور الحجابة بيد رضوان حاجب أبيه، وجعل الوزارة لابن الخطيب كاتب الأندلس ومؤرخها المشهور. ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص١٠٠؛ الإحاطة، ج٢، ص١٥.

(٣) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص١٠٨–١٠٩؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٠٦؛ المقري: نفح الطيب، ج٥، ص٨٤– ٨٥؛ المقري: أزهار الرياض، ج١، ص٢٠٢، ٢٠٣؛ يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بنى الأحمر، ص٣٨.

فيها بنجاحه في استرجاع عرشه، ويطلب منه العودة ليتقلد منصبه الوزاري؛ ونزولاً عند رغبة السلطان الغرناطي، جاز ابن الخطيب بلاد المغرب إلي غرناطة(١).

وفي تلك الآونة كثر خُصوم ابن الخطيب حتى وقع ضحية التآمر داخل البلاط الغرناطى، بسبب استئثاره بالسلطة، وانفراده بالحل والربط، مما جمع حوله الحساد والمبغضين، الذين أثمرت سعاياتهم لدي سلطان غرناطة، ويأتي علي رأس هؤلاء تلميذه وخلفه في الوزارة ابن زمرك(٢)، الذي انقلب ضده، فبدأ مركزه يضعف يوماً بعد يوم، فقرر ترك السياسة ومشاكلها، بسبب توالى السعايات ضده، وشعوره بالإحباط وعدم قدرته علي مواجهة دسائس خصومه، فقرر الاتجاه نحو حياة الزهد والاعتكاف(٣)، وزيارة بيت الله الحرام، وإيثار الآخرة علي الدنيا(٤).

ولمّا شعر ابن الخطيب بتغير سلطانه عليه، ورفضه السماح له بأداء فريضة الحج، أو حتى اعتزال العمل السياسي، فما كان من ابن الخطيب إلا أن احتال علي سلطانه، بحجة تفقد الثغور الغربية، ومنها عقد العزم علي الفرار إلي المغرب، بعدما يئس من السياسة ومتاعبها، فكتب رسالة إلي سلطانه الغنى بالله يودّعه فيها، ويشرح له دواعي استقالته، وبعدها جاز المضيق متجهاً إلي سبتة في غرة جمادي الآخرة من سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٢م، تاركاً أعباء الوزارة بالأندلس، فاراً إلي ما يرجوه من حياة هادئة في كنف السلطان المرينى أبي فارس عبد العزيز، الذي استقبله أحسن استقبال(٥).

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٣١٤،٣١٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٣٤؛ المقري: نفح الطيب، ج٥، ص١٠٠.

(٢) هو محمد بن يوسف بن محمد، يعرف بابن زمرك، أحد أدباء وكتاب الأندلس الكبار، ولد ونشأ بغرناطة، ترقي في الأعمال الكتابية إلي أن جعله صاحب غرناطة الغنى بالله كاتم سره سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٢م، ثم وزيراً له، توفي في عهد سلطان بنى نصر محمد السادس مقتولاً شر قتلة، مع بعض أبنائه. ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٤١؛ المقري: نفح الطيب، ج٥، ص١٣٤؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٧، ص١٥٤؛ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، الأندلس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٢٠٧.

(٣) الناصري: الاستقصا، ج٤، ص١٣.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٣١٧.

(٥) نفسه، ق٢، ص٣١٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٣٥ ؛ المقري: نفح الطيب، ج٥، ص٩٩– ١٠٠.

وعلي الجانب الآخر، استمر خصوم ابن الخطيب في إشعال نيران الاتهام ضده، فرموه بالإلحاد والخروج عن الشرع في بعض ما كتب في مؤلفاته(١). وكان أبرز مروج لهذه الدعاية المسمومة كما هو معلوم، تلميذه وخلفه في الوزارة ابن زمرك، فضلاً عن قاضي الجماعة أبو الحسن النباهى أحد كبار خصومه والمفتين بقتله، والذي كان من قبل من أوفى أصدقاء ابن الخطيب قبل أن تتغير العلاقة بينهما، والذي بعث برسالة إلي ابن الخطيب يتهمه فيها بالكفر والإلحاد(٢).

ولا يتسع لنا المجال هنا للبحث عن حقيقة الأسباب التى نشأ عنها هذا الخلاف، إلا أن هذا الأخير – النباهي– لم يكن قطعاً بريئاً من المشاركة في الحملة التى شُنت علي ابن الخطيب، فجعلته هدفاً للمكائد والوشايات والتهم، فقد تغيرت النفوس عليه، وجرت له أتعس التقلبات، وكثرت السعايات ضده، وتنكر له من كان هو سبباً في رفع مكانتهم، ولم يكن ابن الخطيب غافلاً عما يجري من حوله، فهو يقول في وصف تلك الظاهرة التى ألمت به "وصرت أنظر إلي الوجوه، فألمح الشر في نظراتها، وأعتبر الكلمات فأتبين الحسائف (الأحقاد) في لغاتها، والضغينة في كل يوم تستحكم والشر يتضاعف"(٣). وبذلك يكون كيد خصوم ابن الخطيب قد اشترك فيه تياران: إحدهما سياسي بزعامة خلفه في الوزارة ابن زمرك، وتيار آخر عقدي بزعامة النباهي، استهدف تصفيته من خلال الهجوم علي رأس ماله الثقافي، متخذين من المكائد والوشايات والدسائس آلية لاكتساب الحظوة، وإقصاء الآخرين.

ونتيجة لكل هذه التهم التى نجحت إلي حد بعيد، أفتى عدو ابن الخطيب الألد قاضي الجماعة أبو الحسن النباهي بوجوب حرق كتبه التى تتناول العقائد والأخلاق، فجمعت طائفة من كتب ابن الخطيب وأُحرقت بحضرة غرناطة في منتصف سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧٢م "بمحضر من العلماء والفقهاء والمدرسين "لما تضمنته الكُتُب المذكورة من المقالات التى

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٣٥؛ محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٦٨م، ص١٥٦.

(٢) المقري: نفح الطيب، ج٥، ص١١٨– ١١٩، ١٢٢؛ المقري: أزهار الرياض، ج١، ص٢١٢– ٢١٣؛ محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب، ص١٥٦، ١٥٧.

(٣) ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٨.

أوجبت ذلك عندهم، وحققته لديهم"[١]، بعد صدور فتوى فقهية بذلك، علي أساس أنها تطعن في العقيدة والدين، وتنطوي علي إلحاد وكفر[٢]. وهكذا، نجح خصومه في طمس تراثه والعبث به وإحراقه، عندما لم تُجد محاولاتهم للتخلص منه.

وفي سياق متصل، أرسل الغني بالله إلي نظيره المرينى السلطان عبد العزيز كتاباً يطلب منه فيه تنفيذ حُكم الشرع في الوزير المُلحد، وهو الإعدام، أو تسليمه إلينا، فما كان من سلطان بنى مرين إلا أن رفض طلبه، متعللاً بقوله: "هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه، وأما هنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوارى"[٣]، بل زاد العاهل المغربي من تقريب ابن الخطيب وإكرامه، وأغدق عليه حمايته من كيد أعدائه الذين يتربصون به.

وكانت وفاة السلطان المريني عبد العزيز سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م مفاجأة مؤلمة للبلاط المرينى ولابن الخطيب؛ إذ نودي في الحال بولاية ولده القاصر السعيد، مما فتح باباً للصراع بين الوزراء والأوصياء علي العرش، فغادر السعيد بلاط أبيه بتلمسان في اتجاه فاس ومعه ابن الخطيب الذي تقوّى مركزه في بلاط السلطان الجديد[٤]. ورغم ذلك، لم تهدأ محاولات الغنى بالله في الإيقاع بابن الخطيب، إلا أنه فشل في مسعاه؛ لسمو مكانة ومنزلة ابن الخطيب لدي السعيد، ومن ثم ساءت العلاقة بين بلاطي فاس وغرناطة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلي تدبير مؤامرة من لدن تفكير حكام غرناطة للإطاحة بالملك السعيد، عندما حرض سلطان غرناطة بعض الثوار والخوارج من بنى مرين علي الإنقلاب والثورة علي السلطان المرينى الذي أبي أن يلبي رغبة السلطان الغرناطي في القضاء علي وزيره السابق، وأمدهم بما يحتاجون إليه، حتى تمكنوا من الإطاحة بالسلطان السعيد، وتنصيب الأمير أبي العباس بن أبي سالم مكانه سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م[٥].

---

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٢٤٤.

(٢) كانت الكتب الفلسفية والكلامية من الكتب المذمومة بالأندلس. المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢٢١.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٣٥– ٣٣٦.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص٣٢٠.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٣٦؛ المقري: أزهار الرياض، ج١، ص٢٢٥.

وسرعان ما بادر العاهل المرينى الجديد بمجرد نجاح المؤامرة بإلقاء القبض علي ابن الخطيب، فحُوكم بعدما نُسبت إليه طائفة من التهم التى وجهت إليه في غرناطة، وكانت النية منصرفة إلي تصفيته، وكان للنباهي وابن زمرك اليد الطولي في إعداد وصياغة هذه التهم، التى قذفت به نحو مربع النكبة والهلاك، ولم يكن الباعث علي هذا البغض الشديد من جانب الغنى بالله لوزيره السابق ابن الخطيب، هو فراره من الأندلس أو ما نسب إليه من تهم الزندقة والإلحاد والكفر؛ لأن الباعث الحقيقي كان أشد من ذلك وأخطر، وهو أن ابن الخطيب كان رداً منه علي مساعى خصومه، قد أخذ يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس وافتتاحها، والاجهاز علي بني الأحمر في غرناطة، وقد نجح بالفعل ابن الخطيب في هذا الإغراء، ووضعت لذلك خطة تقرر تنفيذها عند رجوع العاهل المغربي إلي فاس(١)، وقد أبانت الوقائع فيما بعد صحة ذلك.

وعلي كل حال، فقد تُرك ابن الخطيب لمصيره المحتوم الذي سيؤول إليه، بعدما كالوا له التهم جزافاً، فقبض عليه وعذب أمام الملأ، وزج به في زنزانة مظلمة، وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله، فدس عليه الوزير سليمان بن داود بعض الأوغاد من حاشيته، فطرقوا سجنه ليلاً، ومعهم بعض الخدم الأندلسيين الذين جاءوا مع سفراء ابن الأحمر، وقتلوه خنقاً في سجنه، وأخرجوا جثته في الغد، فدُفنت بالمقبرة الواقعة تجاه باب المحروق(٢)، أحد أبواب فاس القديمة، ثم أخرجت جثُته في اليوم التالي، وطُرحت فوق القبر لينظره الناس، ثم جمعت لها أعواداً وأضرمت حولها النيران، فاحترق شعره واسودّت بشرته، ثم أعيدت الجثة إلي القبر قبل أن تحترق كليةً، وتركت هنالك لتثوى الثواء الأخير، وكان في ذلك انتهاء محنة

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٤١؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، ج١، ص٢٢٥؛ عبد الهادي التازي: ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً، ص٩٤.

(٢) هو باب الشريعة القائم من ناحية فاس الجديد، سمي بباب المحروق منذ العهد الموحدي عندما أحرق به أحد الثوار بعد صلبه لمدة خمسة عشر يوماً، فسمي باب المحروق. الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١م، ص٤٣؛ ابن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية، ص ٣٨؛ ابن إدريس الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني وآخرون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، (د.ت)، ج٣، ص٢٠٢.

ابن الخطيب. وقد وقعت هذه المأساة المؤلمة في ربيع الأول أو ربيع الآخر سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م[١].

وعادة ما كان يتم اللجوء إلي القتل والإحراق بالنار مثلما حدث لابن الخطيب إغراقاً في شهوة التشفي والانتقام من الخصوم[٢]، وقد لخص ابن خلدون هذا المآل المشؤوم الذي طال صديقه ابن الخطيب بقوله إنه: "الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه"[٣]، أو كما قال محمد عبد الله عنان أنه ذهب "ضحية الجهالة والتعصب، والأحقاد السياسية الوضيعة"[٤].

كل هذه القرائن وغيرها تنهض دليلاً علي أن نبش القبور وتدنيسها والعبث بمحتوياتها لم يكن غريباً علي مجتمع الغرب الإسلامي، وأن هذا النهج من جانب السلطة ضد خصومها كان بمثابة الداء القاتل الذي أدي إلي تراجع الغرب الإسلامي في هذه الحقبة الخطيرة من تاريخه، ومن الغريب أن معظم من تعرضوا لنبش قبورهم في الغرب الإسلامي قد تعرضوا للظلم والافتراء أكثر من مرة: إما بنبش قبورهم وحرق تراثهم الفكري من طرف السلطة، وإما بالباطل من قبل المؤرخين الرسميين بالطمس والتهميش والسكوت عن مثل هذه الأفعال الشنيعة.

٢) ظاهـرة طمس وإخفاء القبور خشية نبشها:

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٢؛ ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص ٦٢– ٦٣؛ المقري: أزهار الرياض، ج١، ص٢٣٠– ٢٣١.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، ص٣٣١. لم يكن ابن الخطيب وحيد عصره الذي تعرض للتنكيل والقتل والإحراق، فابن الأبار تعرض هو الآخر لشر موته، وكان من الذين امتحنوا في علاقتهم بالسلطة، إذ اتهم بالتربص بالدولة الحفصية، فضرب بالسياط ونكل به، وقتل فعصاً بالرماح في محرم سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، ثم أحرق شلوه، وأكلت النار جسده، تلك النار التى لم ينطفئ نورها بما كانوا يلقون فيها من كتبه ومؤلفاته، حتى تحول جسده إلي رماد داكن اللون، كل ذلك علي مرأى من الناس الذين أخرست بعضهم رهبة الموت، وكانت قد شفت غل بعضهم الآخر. ابن الأبار: الحلة السيراء،ج١، ص٤٥،٤٦ (من مقدمة المحقق)؛ المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبيارى، ط٣، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٨٩م، ص١٩، ٢٤،٢٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٤٢٥؛ ابن الأحمر: كتاب مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تحقيق محمد التركى التونسي، مراجعة محمد بن تاويت التطوانى، منشورات جامعة محمد الخامس، تطوان، ١٩٦٤م، ص٨٧؛ المقري: أزهار الرياض، ج٣، ص٢٠٥–٢٠٦.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص٤٩٦.

(٤) لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، ص١٦٩– ١٧٠.

وبقي أن نشير أخيراً إلي ظاهرة طمس وإخفاء قبور المسلمين في الأندلس خوفاً من تعرضها للنبش والتخريب من جانب الأسبان خلال المواجهات والصدامات المسلحة الدائرة بين القوي السياسية في المغرب والأندلس، وبين ممالك إسبانيا المسيحية في الشمال، ورغم افتقارنا إلي إشارات واضحة تفيد بقيام النصارى الأسبان بنبش قبور المسلمين، فأننا نتوفر علي إشارات في غاية الأهمية عن طمس وإخفاء قبور المسلمين خشية تسلط النصارى عليها بالتخريب والنبش.

وأول هذه الإشارات يعود إلي انتصار المسلمين في عهد أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب المرينى المعروف بالمنصور علي قوات مملكة قشتالة بقيادة القائد "تونيو دي لارا" الذي تقدر بعض الروايات جيشه بثلاثين ألف فارس وستين ألف راجل(١)، وتسميه المصادر العربية باسم "ذننه أو ذونونه"، في ١٥ ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م؛ حيث تمكن المسلمون من تبديد جيشه بين قتيل وأسير وفار، ومزقوا قوات قشتالة شرّ ممزّق(٢).

وذكرت بعض الروايات أن عدد رؤوس القتلي من النصارى في هذه المعركة بلغ ثمانية عشر ألف قتيل(٣)، وفي رواية أخري ستة آلاف من النصارى(٤)، حتى بدت كالجبل العظيم. وكانت جملة من استشهد من المسلمين أربعة وعشرين رجلاً؛ حيث يقول ابن أبي زرع: "ثم تفقد أمير المسلمين جيوشه ونظر من استشهد منهم في تلك الغزاة .. فكانت جملتهم أربعة وعشرين رجلاً، فأمر المسلمين بدفنهم ومواراتهم وتعفية آثار قبورهم"(٥)؛ خوفاً من تسلط النصارى عليها بالنبش والتخريب.

ونتوفر علي إشارة أخري في غاية الأهمية تكشف عن رغبة فقيه أندلسى في طمس قبره بعد وفاته، خشية نبشه وتدميره علي يد الأسبان، وهذه الإشارة التى أوردها التجاني تخص شخصًا يدعي أبو يعقوب الخشاب، الذي كان يقيم في مدينة طرابلس متعبدا متزهداً، قبل أن

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١٤٨.
(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٥٦٥.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٣١٨؛ نفسه، الذخيرة السنية، ص١٥٠.
(٤) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص١٩٣.
(٥) ابن أبي زرع: الذخيرة، ص١٥٠.

يتركها وينتقل إلي مدينة تونس، ومنها جاز البحر إلي جزيرة جربة[١] التى توفي بها، وكان هذا الفقيه قد أوصي قبل وفاته "بتعمية قبره؛ فلا يوقف له بها الآن علي قبر"[٢].

وحسب رواية التجاني والتى يقول فيها "ويظهر لي أن ذلك والله أعلم لأنه اطلع علي النصاري ستملك تلك الجزيرة بعد، فكره إشهار قبره بين قوم كفار، أو لأنه مال علي أحد القولين عندنا في تكفير أهلها بما شرحناه من مذهبهم الفاسد"[٣]، فإن هذا الفقيه كان يخشى علي نفسه – بسبب اختلال أمر الأندلس منذ نهاية القرن ٤هـ/١٠م وبداية القرن ٥هـ/ ١١م – من تعرض الأسبان لقبره بالنبش والتخريب إذا تمكنوا من الجزيرة، وفي الوقت نفسه خوفه من أهل الجزيرة نفسهم، بسبب تعرضه لهم ولمذهبهم الفاسد من أن ينكلوا به وبقبره بعد وفاته.

ونتوفر علي إشارة أخري تفيد بتعرض الأسبان لقبور المسلمين في الأندلس بالطمس والتخريب، هذه الإشارة تخص فقيه أندلسي من مدينة بلنسية[٤] يدعي محمد بن جعفر بن خيرة القرطبي البلنسي[٥]، الذي توفي سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م وقد قارب علي المئة، فدفن خارج باب بيطالة، فأصبح قبره مزاراً للناس يتبركون به، إلي أن استولي الأسبان علي

(١) جزيرة جربة: من أعظم الجزر خطراً، طولها من المغرب إلي المشرق ستون ميلاً، وعرضها عشرون ميلاً، أكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين والتفاح الذي لا يوجد له نظير، أهلها ينقسمون إلي فرقتين، فرقة تعرف بالوهبية، والأخري تعرف بالنكارة، وكلا الفرقتين خوارج غلاة في مذهبهم مكفرون، لا يلامسون بثيابهم ثياب= =أحد ممن ليس علي مذهبهم، ولا يؤاكلونه في آنيته، وإن استسقي عابر سبيل ماء من بعض آبارهم استخرجوا ماء البئر كله. للمزيد انظر الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، مج١، ص٣٠٥ ؛ رحلة التجاني، ص١٢١– ١٢٦.

(٢) رحلة التجاني، ص٢٦١.

(٣) نفسه والصفحة.

(٤) مدينة بلنسية: من أهم قواعد الأندلس، تقع في إقليم شرق الأندلس، علي مسافة ثلاثة أميال من ساحل البحر المتوسط، يحدها من الشمال مدينة طرطوشة، ومن الجنوب مدينة دانية ومرسية، ومن الغرب طليطلة. الإدريسى: صفة المغرب وأرض السودان ومصر، ص١٩١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، مج١، ص٤٩٠؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وتعليق إ.ليفي بروفنسال، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م، ص٤٧.

(٥) كان هذا الفقيه من نبهاء مدينة بلنسية، معروفاً بالنزاهة والفضل، ومتولياً للخطبة بجامع المدينة. ابن الآبار: التكملة لكتاب الصلة، ج٢، ص١٣؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج٤، س٦، ص١٦٦– ١٦٧.

بلنسية[١] في أواخر صفر سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م "فطمسوه وسائر قبور المسلمين"[٢]. ولعل في هذه الإشارات، ما يؤكد إقدام النصارى الأسبان علي نبش قبور مسلمى الأندلس، رغم إغفال المصادر التاريخية لتلك الوقائع.

(١) بعد هزيمة العقاب القاسية سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م، ضعفت قوة الموحدين وخارت قواهم، وعادت الأندلس إلي سابق عهدها من التشتت والفرقة، فقويت شوكة حركة الاسترداد الإسبانية، وبدأ مشروع ملك آرغون للاستيلاء علي مدينة بلنسية بفرض الحصار عليها ورميها بالمجانيق، وبلغ أهلها مبلغاً من شدة الجوع، ونفاد الأقوات، حتى اضطروا إلي تسليمها صلحاً سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م، فاستباح الأسبان منازلها وأراضيها، وقسموها بين رجالهم، مما أدي إلي تشريد أهلها. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٧٣؛ الحميري: الروض المعطار،= =ص٩٧؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، عصر الموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط٢، ١٩٩٠م، القسم الثاني، ص٤٥٠– ٤٥١.

(٢) ابن الآبار القضاعي: التكملة لكتاب الصلة، ج٢، ص١٣؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج٤، س٦، ص١٦٦– ١٦٧.

الخـــاتمـــة

لا شك أن معالجة موضوع "**ظاهرة نبش القبور وتخريبها في الغرب الإسلامي**" هو فى حد ذاته إشكالية، لاسيما فى ظل غياب حجج وأدلة قاطعة تبرهن على تقدم وازدهار تلك الظاهرة خلال الفترة المعنية بالدراسة، فالحديث عن نبش القبور أو تدنيس شواهدها وتخريبها، وحتى العبث بمحتوياتها، لا يزال محاطاً بالكثير من الغموض والكتمان، لكن المؤكد أن تلك الظاهرة كانت أساساً مهمًّا من الأسس التى انبنى عليها قهر السلطة للخصوم والمناوئين والمعارضين خلال العصر الوسيط، وبعد استعراضنا للموضوع من كافة جوانبه، خلصنا إلى بعض النتائج من هذه الدراسة، نذكر منها:

١) بيَّنت الدراسة أن المسلمين عبر تاريخهم الطويل منذ بداية الدعوة الإسلامية وحتى نهاية فترة البحث قد مارسوا نبش القبور في فترات مختلفة من تاريخهم، وقد بدأ ارتكابهم لهذا الفعل الشنيع مع بداية الصراع السياسي بينهم علي الخلافة، رغم أن الإسلام في نصوصه وتعاليمه لم يدعُ إلي تخريب القبور أو المساس بها، كما نهى أيضا عن التمثيل بالجثث والعبث بها.

٢) اقتصار الدوافع والأسباب الكامنة وراء نبش القبور في الغرب الإسلامي خلال فترة البحث علي الصراعات السياسية والخلافات المذهبية والفلسفية والكلامية.

٣) سيطرة البعد السياسي علي أغلب ظواهر نبش القبور المرصودة، ممثلاً في الرغبة في الانتقام من المخالفين والخصوم والثوار والمناوئين وإذلالهم بانتهاك حرمة قبورهم بعد رحيلهم عن الحياة، ولا غرو في ذلك، فالكيانات السياسية آنذاك اعتبرت أعداءها ومن ينحو منحاهم، ليسوا أعداء وخصومًا سياسيين فحسب، بل كفاراً – وهم إخوان لهم في الدين – يجب جهادهم وإزهاق أرواحهم، ونبش قبورهم إمعاناً في التشفي والانتقام منهم، معتمدين في ذلك علي مبررات دينية وسياسية.

٤) توصلت الدراسة إلي أن معظم من تعرضوا لنبش قبورهم في الغرب الإسلامي قد تعرضوا للظلم والافتراء أكثر من مرة: إما بنبش قبورهم وحرق تراثهم الفكري من طرف السلطة، وإما بالباطل من قبل المؤرخ بالطمس والتهميش والسكوت عن وقائع وأحداث

مثل هذه الأفعال الشنيعة، التى لم تذكر في المصادر إلا بنصف الكلمات، ولم تظهر في المصادر إلا بشكل باهت، بل نكاد نجهل كل تفاصيلها، بعدما أُسْدل ستاراً من الصمت علي وقائعها.

٥) لم تصل ظواهر نبش القبور التى تم رصدها خلال فترة البحث إلي حد الظاهرة الإجرامية الفجة؛ نتيجة لعوامل كثيرة تتعلق بالواقع التاريخى الذي يؤكد أن تلك الانحرافات والممارسات لم تكن طابعًا غالبًا، وإنما مست أفراداً، ولم يكن بإمكانها أن تشكل تياراً بارزاً في مجتمع الغرب الإسلامي.

٦) لم تقتصر ظواهر نبش القبور في الغرب الإسلامي علي فئة اجتماعية معينة، حيث شملت السياسيين من المخالفين والخصوم والمناوئين، وكذا الوزراء والفقهاء والقضاة.

٧) حاولت الدراسة قدر الإمكان أن تميط اللثام عن الغموض الذى يكتنف أحداث ووقائع نبش القبور وتدنيس شواهدها وتخريب محتوياتها، والدوافع والظروف الكامنة وراء ذلك.

قائمة المصـــادر والمراجـع العربيـــة والمعـربـة

أولاً : المصـــادر العربيـــة المطبوعـــة:

١) **القرآن الكريم.**

٢) **ابن أبى زرع**(أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي، ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢م.

٣) ـــــــ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م.

٤) **ابن الأبار**(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م): الحلة السيراء، جزءان، تحقيق حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

٥) ـــــــ، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، ج١.

٦) ـــــــ، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبيارى، ط٣، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٨٩م.

٧) **ابن الأثير**(أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الواحد، ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل فى التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، مج٥.

٨) **ابن الأحمر**(أبو الوليد إسماعيل بن يوسف، ت ٨١٠هـ/١٤٠٧م): بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.

٩) ـــــــ، كتاب مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تحقيق محمد التركى التونسي، مراجعة محمد بن تاويت التطوانى، منشورات جامعة محمد الخامس، تطوان، ١٩٦٤م.

١٠) **ابن الجوزي** (أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، ت٥٩٧هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفي عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج٥.

١١) **ابن الخطاب المالكى المغربي** (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المالكي المغربي، ت٩٥٤هـ): مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، ط١، دار الرضوان للنشر، موريتانيا، نواكشوط ، ٢٠١٠م، مج٢.

١٢) **ابن الخطيب** (لسان الدين بن الخطيب، ت ٧٦٦هـ/١٣٧٤م): أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق إ.ليفي بروفنسال، ط٢، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م، القسم الثاني.

١٣) ـــــــ، أعمال الأعلام ..، تحقيق أحمد مختار العبادى ومحمد إبراهيم الكتانى، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤م، القسم الثالث.

١٤) ـــــــ، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ٤ أجزاء.

١٥) ـــــــ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تصحيح السيد البشير الفورتي، طبعة تونس، ١٣٢٩هـ.

١٦) ـــــــــ، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

١٧) ـــــــــ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تصحيح ونشر محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ.

١٨) **ابن القطان المراكشى**(أبو الحسن بن على بن محمد بن عبد الملك الكتامى، ت٦٢٨هـ/١٢٣١م): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، دراسة وتحقيق محمود على مكى، ط٢، دار الغرب الإسلامى، ١٩٩٠م.

١٩) **ابن المبارك** (عبدالله بن المبارك، ت١٨١هـ): كتاب الجهاد، تحقيق وتعليق نزيه حماد، دار المطبوعات الحديثة، جدة، (د.ت)، ج١.

٢٠) **ابن المؤقت**(محمد بن محمد بن عبد الله بن المبارك المراكشي): السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، طبع بمطبعة مصطفي البانى الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٤١هـ.

٢١) **ابن الهمام الحنفي** (كمال الدين محمد بن عبد الواحد، ت٨٦١هـ) : شرح فتح القدير، تعليق الشيخ عبد الرازق غالب المهدى، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، مج٢.

٢٢) **ابن الوردي** (زين الدين عمر بن مظفر، ت٧٤٩هـ): تاريخ ابن الوردي، ط٢، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩م، ج١.

٢٣) **ابن بسام**(أبو الحسن على، ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨– ١٩٧٩م، ٨ أجزاء.

٢٤) **ابن بشكوال** (أبي القاسم خلف بن عبد الملك، ت٥٧٨هـ/١٠٨٣م): الصلة، تحقيق إبراهيم الأبيارى، ط١، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩م.

٢٥) **ابن بطال** (أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، ت٤٤٩هـ/١٠٥٧م): شرح صحيح البخاري، تعليق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط٢، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٣م، ج٢.

٢٦) **ابن بلكين**(الأمير عبدالله بن بلكين بن باديس بن حبوس)**:** مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بنى زيري بغرناطة المسماة بكتاب التبيان، نشر وتحقيق إ. ليفى بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م.

٢٧) **ابن تغري بردي** (جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، ت٨٧٤هـ)**:** النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٦٣م، ج٢.

٢٨) **ابن تومرت:** كتاب أعز ما يطلب، تحقيق وتقديم عمار الطالبى، الجزائر، ١٩٨٥م.

٢٩) **ابن حجر العسقلاني** (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتب أبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار السلام، الرياض، ٢٠٠٠م، ج١.

٣٠) **ابن حزم الأندلسي** (أبو عبد الله علي بن أحمد بن سعيد، ت٣٨٤هـ/٩٩٤م): المحلي، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة ، ١٣٤٩هـ، ج٥.

٣١) ـــــــ، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ج٣.

٣٢) **ابن حماد**(أبو عبدالله محمد بن على، ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)**:** أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامى نقرة و عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٤٠١هـ.

٣٣) **ابن حيان القرطبى**(أبو مروان بن حيان، ت ٤٦٩هـ)**:** المقتبس فى أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن على الحجى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م.

٣٤) **ابن خاقان**(أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسى، ت٥٢٩هـ)**:** قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق وتعليق حسين يوسف خربوش، ط١، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الأردن، ١٩٨٩م، ج١، ٢.

٣٥) **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)**:** العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تقديم عبادة كحيلة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧م، الأجزاء ٤، ٦، ٧.

٣٦) **ابن خلكان**(أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، ت ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، مج٥.

٣٧) **ابن رشد القرطبى** (أبو الوليد محمد بن أحمد، ت٥٢٠هـ/١١٢٦): المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجى، ط١، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٨م، ج١.

٣٨) ـــــــ، مسائل أبي الوليد بن رشد، تحقيق محمد الحبيب، ط ٢، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣م، مج٢.

٣٩) **ابن سعد** (محمد بن سعد بن منيع الزهري، ت٢٣٠هـ): كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م، ج٣.

٤٠) **ابن سعيد المغربي** (أبو الحسن علي بن موسي، ت٦٨٥هـ/١٢٨٤م): المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م، جزءان.

٤١) ـــــــ، رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق وتعليق محمد رضوان الداية، ط١، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م.

٤٢) ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن صاحب الصلاة، ت٥٩٤هـ/ ١١٩٨م): المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م.

٤٣) **ابن صاعد الأندلسي** (أبي القاسم أحمد بن صاعد، ت٤٦٣هـ/١٠٦٩م): طبقات الأمم، نشر لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢م.

٤٤) **ابن عاصم** (أبي يحيي محمد بن عاصم الغرناطي، ت٨٥٧هـ): جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق صلاح جرار، دار البشير للتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٩م، مج١.

٤٥) **ابن عبد البر القرطبى** (أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، ت٤٦٣هـ): الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معانى الرأى والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تحقيق عبد

المعطى أمين قلعجى، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق _ بيروت، دار الوعي، حلب _ القاهرة، ١٩٩٣م، مج٨.

٤٦) **ابن عبد الحكم**(عبد الرحمن بن عبد الله، ت ٢٥٧هـ/ ٨٧١م): فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٦٤م.

٤٧) **ابن عبد الكريم الرافعى القزوينى** (أبي القاسم عبد الكريم بن محمد، ت٦٢٣هـ): العزيز، شرح الوجيز المعروف بالشرح الكبير، تحقيق وتعليق علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢.

٤٨) **ابن عبد الملك المراكشى**(أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الملك، ت ٧٠٣هـ): الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة، السفر الأول، تحقيق محمد بن شريفة، ط١، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، القسم الأول والثانى؛ الأسفار الرابع والخامس والسادس، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)؛ السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٤، القسم الأول.

٤٩) **ابن عذاري**(أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشي، ت حالي ٦٩٥هـ/١٢٩٥م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، الأجزاء ١، ٢، ٣؛ الجزء الرابع، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م؛ قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.

٥٠) **ابن عساكر** (أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله المعروف بابن عساكر، ت٥٧١هـ): تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها، دراسة وتحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦م، ج٣١.

٥١) **ابن غازي** (محمد بن غازي العثماني): الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٨م.

٥٢) **ابن قتيبة الدينوري** (ت٢٧٠هـ): الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، ط١، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٠م، ج١.

٥٣) **ابن قدامة** (موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، ت٦٢٠هـ): المغنى، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركى عبد الفتاح محمد الحلو، ط٣، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٧م، ج١٢.

٥٤) **ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين بن كثير، ت٧٧٤هـ)**: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩١م، الأجزاء ٧، ١٠.

٥٥) **ابن مرزوق** (محمد بن مرزوق التلمساني، ت٧٨١هـ/١٣٧٩م): المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بن عياد، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٥٦) **ابن مفلح المقدسى (شمس الدين محمد بن مفلح المقدسي، ت٧٦٣هـ)**: كتاب الفروع، تحقيق عبد الله بن محسن التركى، ط١، مؤسسة الرسالة _ دار المؤيد، ج٣، ٢٠٠٣م.

٥٧) **ابن منظور**(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ت ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، الأجزاء ٤٦، ٤٨.

٥٨) **أبي الحسن الماوردي** (أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ت٤٥٠هـ/١٠٥٨): الحاوى الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد عوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، تقديم محمد بكر إسماعيل وعبد الفتاح أبو سنة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج١٣.

٥٩) ـــــــ، الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٦٠) **أبي زكريا بن شرف النووي** (أبي زكريا محي الدين بن شرف، ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م): كتاب المجموع، شرح المهذب للشيرازي، تحقيق وتعليق محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، السعودية، (د.ت)، ج٥.

٦١) **الإدريسى**(أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي، ت٥٦٠هـ/١١٦٤م): صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق دوزي ودي غوية، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل، ١٨٦٦م.

٦٢) ـــ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢هـ، مج١.

٦٣) **الإمام مالك** (أبو عبد الله مالك بن أنس، ت١٧٩هـ/٧٩٦م): موطأ مالك، رواية يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف، ط٢، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩٧م، مج١.

٦٤) **البكري** (أبو عبيد الله عبد العزيز بن محمد، ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م): المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة،(د.ت).

٦٥) ـــــ، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليُوفن وأندري فيري، ط٢، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٢م، جزءان.

٦٦) **البيذق** (أبو بكر بن على الصنهاجى، ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م): أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١م

٦٧) **البيهقى** (أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البهيقي، ت٤٥٨هـ): السنن الكبري، تحقيق محمد عبد القادر، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ج٨.

٦٨) **التجاني**(أبو محمد عبدالله بن محمد التجانى، ت ٧١٧هـ): رحلة التجانى، تقديم حسن حسنى عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا– تونس، ١٩٨١م.

٦٩) **الجزنائي** (علي الجزنائي): جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١م.

٧٠) **الجوذرى**(أبو على منصور العزيزى): سيرة الأستاذ جوذر به توقيعات الأئمة الفاطميين، تحقيق محمد كامل حسين و محمد عبد الهادى شعيرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٤م.

٧١) **الحسن البصري** (أبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن البصري، ت٣٧٨هـ): التفريع فى فقه الإمام مالك بن أنس، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م، مج٢.

٧٢) **الحميري** (محمد بن عبد المنعم، ت في أواخر القرن ٩هـ/١٥م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.

٧٣) ـــــــ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وتعليق إ.ليفي بروفنسال، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.

٧٤) **خليفة بن خياط** (ت٢٤٠هـ): تاريخ خليفة ابن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥م.

٧٥) **خير الدين الزركلي** (ت١٣٩٦هـ): الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٧.

٧٦) **الذهبي** (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء، ج٦، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، ط١١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.

٧٧) **الزركشي** (أبي عبد الله محمد بن إبراهيم، توفي في نهاية القرن التاسع الهجري): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، ط٢، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦م.

٧٨) **السيوطي** (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، ت ٩١١هـ/١٥٠٣م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، ج١.

٧٩) ـــــــ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج١.

٨٠) ـــــــ، تاريخ الخلفاء، ط١، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م.

٨١) **الصفدي** (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، ت٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركى مصطفي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، مج١٠.

٨٢) **الضبي** (أحمد بن يحيي بن أحمد بن عميرة، ت٥٩٩هـ): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، ١٩٧٦م.

٨٣) **الطبري** (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ت٣١٠هـ): تاريخ الطبري المسمى تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٧م، ج٤.

٨٤) **العباس بن إبراهيم السملالى المراكشى**: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣م، ج٩.

٨٥) **عبد الواحد المراكشي**(محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي، ت٦٤٧هـ/١٢٥٠م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلي آخر عصر الموحدين، تحقيق وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط١، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩م.

٨٦) ـــــــ، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، ط١، الثقافة الدينية، ١٩٩٧م.

٨٧) **القاضى عياض** (عياض بن موسي السبتي، ت٥٤٤هـ/١١٤٩م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج١، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، الرباط، ١٩٦٥م؛ ج٢–٣–٤ تحقيق عبد القادر الصحراوى، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٨٣م؛ ج٥، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة فضالة، (د.ت)؛ ج٦–٧–٨، تحقيق سعيد احمد أعراب، مطابع الشويخ، تطوان، ١٩٨٦م.

٨٨) ـــــــ، الغنية، فهرست شيوغ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.

٨٩) **الكتاني** (أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس، ت١٣٤٥هـ): سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني وآخرون، دار الثقافة للنشر ، الدار البيضاء، المغرب، (د.ت)، ج٣.

٩٠) **مجمع اللغة العربية:** المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٩١) **مجهول** (كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي): الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشئون الثقافية العامة، العراق، ١٩٨٦م.

٩٢) **مجهول**(من أهل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٩٣) **محمد بن إدريس الشافعى** (ت٢٠٤هـ): الأم، تحقيق وتخريج رفعت فوزى عبد المطلب، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ٢٠٠١م، ج٢.

٩٤) **محمود مقديش**: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، مج١.

٩٥) **المسعودي** (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن المسعودي، ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به كمال حسن مرعى، ط١، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، ٢٠٠٥م، ج٣.

٩٦) **المقدسي** (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري،ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.

٩٧) **المقري** (أحمد محمد التلمساني، ت١٠٤١هـ/١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، المجلدات١–٢–٣–٤–٥.

٩٨) ـــــــ، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩م، ٣ أجزاء.

٩٩) **المقريزي** (تقى الدين أحمد بن علي، ت ٨٣٤هـ/١٤٣٠م): السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفي زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ، ١٩٣٦م، ج١، ق٢.

١٠٠) **الموسوعة الفقهية**: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط١، ٢٠٠١م، ج٤٠.

١٠١) **الناصري** (أبو العباس أحمد بن خالد، ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب،١٩٥٤م، الإجزاء ١، ٢.

١٠٢) **النباهي** (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي، ت بعد سنة٧٩٢هـ): تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ضبط وشرح وتعليق مريم قاسم طويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

١٠٣) **النويرى** (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٢، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى، مراجعة إبراهيم مصطفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.

١٠٤) **الواقدي** (محمد بن عمر بن واقد، ت٢٠٧هـ): كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونسن، طبعة عالم الكتب، (د.ت)، ج١.

١٠٥) **الوزان** (الحسن بن محمد الزياتي، ت ٩٦٠م/ ١٥٥٢م): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، ج١.

١٠٦) **الونشريسي** (أبو العباس أحمد بن يحيي، ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ١٣ جزءاً.

١٠٧) **ياقوت الحموي** (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت، ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج١.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

١) **أحمد الطاهري:** عامة قرطبة في عصر الخلافة، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٨م.

٢) **أحمد مختار العبادى:** في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت).

٣) ـــ، لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٦٨.

٤) **آنخل بالنثيا**: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م.

٥) **بدوي عبد الرحمن:** موسوعة الفلسفة، ج٢، ط١، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٤م.

٦) **بسيم عبد العظيم:** شعر الأسر والسجن في الأندلس، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٥م.

٧) **حسن علي حسن:** الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م.

٨) **خضر محمد عبد المختار:** الاغتراب والتطرف نحو العنف، دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م.

٩) **رينهارت دوزي:** ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.

١٠) **السيد عبد العزيز سالم:** تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف، لبنان، ١٩٦٣م.

١١) **شوقي ضيف:** تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م.

١٢) **عادل نويهض:** معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

١٣) **عبد القادر عودة:** التشريع الجنائي في الإسلام مقارناً بالقانون الوضعى، دار الكاتب العربي، بيروت، ج١، (د.ت).

١٤) **عبد الله عنان**: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ٧ أجزاء.

١٥) **عبد الهادي التازي**: ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدى، تطوان، ع٢، ١٩٨٧م.

١٦) **عز الدين أحمد موسي**: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط١، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٣م.

١٧) **محمد بحر عبد المجيد**: اليهود في الأندلس، القاهرة، ١٩٩٢م.

١٨) **محمد أحمد أبو الفضل**: تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ نشأتها حتى استيلاء المرابطين عليها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م.

١٩) **الهادي روجي إدريس**: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من ق١٠إلي ق١٢م، ترجمة حماد الساحلي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج١.

٢٠) **يحيي بوعزيز**: الموجز في تاريخ الجزائر، المطبوعات الوطنية، الجزائر، (د.ت)، ج١.

٢١) **يوسف أشباخ**: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، تقديم سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م، ج١.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

1) **Ashtor, Eliyhu**: The Jews of Moslem Spain, Vol 1-2,1979.
2) **Dubnov, Semon, Markovic,** : History of The Jews from The Roman Empire To The Early Medieval Period, Vol.2, New York, 1973.
3) **Gonzalo Maeso, David**,: Garnata Al- Yahud (Garnada en la Historia de Judaismo Espanol), Universidad de Garnada, 1963.
4) **Maria Isable Firro**,: Accusation of Zandaq in Al- Andalus, Veneza, Quaderni di Studi Arabi, 1986.
5) **Vincent Lagard*ére***: Histoire et Soci*été* en Occident Musulman Au Moyen *Â*ge, Madrid, 1995.